عراقيون
من زمن التوهج

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير
فخري كريم

العدد (2039) السنة الثامنة
الخميس (10) شباط 2011

في ذكرى العلامة
كامل مصطفى الشيبي

4

كامل مصطفى الشيبي.. حياة
زاخرة بالعطاء

7

كامل مصطفى الشيبي

حلاج بغداد

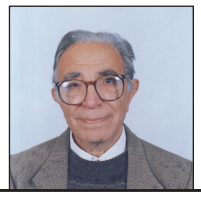

عراقيون
من زمن التوهج
العدد (2039)
السنة الثامنة
الخميس (10)
شباط 2011

كاتب المقال مع الراحل الشيبي

سيرة حياة وذكريات مع الراحل الكبير الشيخ كامل مصطفى الشيبي

د. طه جزاع

في يوم الاثنين الرابع من أيلول ٢٠٠٦ أبلغت بوفاة أستاذي وشيخي وصديقي الجليل الأستاذ الدكتور كامل مصطفى الشيبي بحدود الساعة العاشرة والنصف صباحا ،فأسرعت بالذهاب إلى مسكنه في المنصور من مكان عملي في جامعة بغداد بالجادرية ، وكان من حسن حظي أن أجده مازال ممددا في فراشه بملابس النوم وكأنه يغط في نوم عميق ، أقول من حسن حظي لأنني كنت واحدا من القلائل الذين يعدون على أصابع اليد الواحدة الذين حظوا ذلك الصباح بنقل جسده الطاهر من سريره في غرفة نومه إلى التابوت الذي ينتظر ضيفه الاستثنائي في صالة الاستقبال!

كنت أتلمس ما تبقى من حرارة في جسده أشعر بها وكأنها تتسربل من بين أصابعي قبل أن يستسلم الجسد نهائيا لبرودة الموت ..... ومابين مسافة الطريق والنظر إلى الجسد المسجى بهدوء وطمأنينة.. مر شريط طويل ومتزاحم من الذكريات والمواقف والدروس والعبر اختصرت مايقرب من ثلاثين عاما هي تاريخ علاقتي ومعرفتي ومصاحبتي لهذا الرجل ،ابتدأت منتصف السبعينيات من القرن الماضي حين كنت طالبا في قسم الفلسفة بكلية الآداب ، جامعة بغداد وكان الشيبي يومها في قمة عطائه وحيويته وهو يدرسنا مادة التصوف المقررة لطلبة المرحلة الرابعة على ما أذكر ، وحين يدخل الصف لا يخرج منه إلا وقد امتلأت السبورة حتى حواشيها بمصادر التصوف ومراجعه المهمة عوضا عن دروسه الغنية التي كانت تمتاز بعلم غزير متدفق ومتعة للذهن والروح يحسها طلابه بلمحاته ومداعباته الطريفة وروحه المشاكسة لكل ماهو جامد من الآراء والعقائد.

بعد تخرجي من الدراسة الجامعية الأولية عام ١٩٧٧ ذهبت بنا السبل والحياة والحرب الطويلة كل في طريق إلى أن عدت مجددا إلى مقاعد الدراسة نهاية الثمانينيات طالبا في الماجستير ثم الدكتوراه لألتقي الشيبي مرة أخرى لكنه كان في هذه المرة متعبا مرهقا وان كانت حماسته للعلم والبحث والتحقيق لم تخبو مطلقا ، وفي عام ١٩٩٢ كان الشيبي يدرسنا التصوف من جديد لكن بفهم أعمق ، ودراسة أوسع، مع تركيز ملحوظ على الحسين بن منصور الحلاج الذي خرج صائحا في جامع المنصور ببغداد (اعلموا إن الله تعالى أباح لكم دمي ، فاقتلوني تؤجروا وأسترح ، ليس في الدنيا للمسلمين شغل أهم من قتلي)!! ثم يخاطب تلميذه إبراهيم الفاتك (يا بني إن بعض الناس يشهدون علي بالكفر وبعضهم يشهدونني بالولاية ، والذين يشهدون علي بالكفر أحب إلي والى الله من الذين يقرونني بالولاية ، فقلت : ياشيخ ولم ذلك ؟ فقال إن الذين يشهدون لي بالولاية من حسن ظنهم بي ، والذين يشهدون علي بالكفر تعصبا لدينهم ، ومن تعصب لدينه أحب إلى الله ممن أحسن الظن بأحد)!

كان الشيبي يعلمنا آداب الصحبة الصوفية ومراحل التربية الصوفية (مقامات التوبة والورع والزهد والفقر والصبر والتوكل والرضا) وأحوال الصوفية من (مراقبة وقرب ومحبة وخوف ورجاء وشوق وأنس وطمأنينة ومشاهدة ويقين) ويعلمنا تفسير الشطحات الصوفية وهي الكلمات التي ظاهرها مستشنع وباطنها صحيح سليم ، وهي التي كانت أحد الأسباب الظاهرية لصلب الحلاج القائل :

مزجت روحك في روحي كما
تمزج الخمرة بالماء الزلال
فإذا مسك شيء مسني
فإذا أنت أنا في كل حال

ونجده يناجي الله جل في علاه وهو آخر ماقاله الحلاج قبيل صلبه (اللهم هؤلاء عبادك قد اجتمعوا لقتلي تعصبا لدينك وتقربا إليك فأغفر لهم فانك لو كشفت لهم ماكشفت لي لما فعلوا ما فعلوا ولو سترت عني ما سترت عنهم لما ابتليت بما ابتليت فلك الحمد في ما تفعل ولك الحمد في ماتريد) .

كان الشيبي مشدودا للحلاج وقد جمع وحقق ديوان الحلاج لتصدر طبعته الأولى في بغداد ١٩٧٤ ثم أعقب ذلك بشرح لديوان الحلاج (دراسة ونصوص محققة وشرح) صدر في بيروت العام نفسه ، وفي العام ١٩٨٤ أصدر الطبعة الثانية من ديوان الحلاج أهداها (إلى روح أبي الذي لم أنعم بظل جناحه عساه يسر بهذا العمل في عالمه البعيد) وكانت هذه الطبعة مميزة بخط الحاج يحيى سلوم العباسي ورسوم الفنان الراحل المتصوف شاكر حسن آل سعيد وتخطيطات الفنان ضياء العزاوي الذي رسم غلاف الديوان فصار الديوان بهذا الجمع من المبدعين الكبار تحفة فنية وأدبية نادرة، وفي هذا الديوان لا غيره وربما لذلك حساباته لدى الشيبي قام بإعلان اسمه وكنيته ونسبه كاملا (صنعه وأصلحه أبو طريف الشيبي كامل بن مصطفى بن محمد حسن ألكاظمي المكي العبدري).

وكان قد صدر له أيضا في العام ١٩٧٧ كتاب (الحلاج موضوعا للآداب والفنون العربية والشرقية قديما وحديثا..دراسة ونصوص محققة ورسوم).

إن ذلك يقودنا للحديث عن تراث الشيبي الغزير من بحوث ودراسات وكتب وجهود علمية هائلة لا يمكن حصرها هنا مكتفين بالإشارة إلى ابرز كتبه ومنها كتابه الأشهر(الصلة بين التصوف والتشيع) الذي كانت نواته الأولى رسالة جامعية كتبت تحت إشراف المرحوم الأستاذ الدكتور أبو العلا عفيفي وناقشتها لجنة مؤلفة منه ومن المرحوم الأستاذ محمود الخضيري والمرحوم الأستاذ علي سامي النشار ، فنالت درجة الماجستير في الآداب بدرجة جيد جدا من قسم الدراسات الفلسفية والاجتماعية بكلية الآداب بجامعة الإسكندرية في آب ١٩٥٨،وأنجزت الطبعة الأولى من هذا الكتاب المهم (في ثلاثة أجزاء) وصدرت في بغداد على التوالي ١٩٦٣، ١٩٦٤،١٩٦٦

ثم صدرت الطبعة الثانية (في جزئين) طبعا في القاهرة وبغداد، وصدرت الطبعة الثالثة والأخيرة(في جزئين) بيروت ١٩٨٢ ضم الجزء الأول (العناصر الشيعية في التصوف) والثاني (النزعات الصوفية في التشيع) وهذه الطبعة كانت مراجعة ومزيدة وملحق بها كتاب (الفكر الشيعي والنزعات الصوفية حتى مطلع القرن الثاني عشر الهجري) الذي كان قد صدر ببغداد ١٩٦٦ . وقد أهدى الشيبي كتابه هذا إلى شيخه العقلاني وأخيه الروحاني – وفق تعبيره – المرحوم الأستاذ علي سامي النشار. وترجم الكتاب عام ١٩٧٥ إلى الفارسية ترجمة ملخصة بقلم الدكتور علي أكبر شهابي الأستاذ في جامعتي طهران ومشهد. ومن عادة وأخلاق الشيبي أن يهدي كتبه المهمة إلى الرجال الذين أثروا في حياته مثلما وجدنا إهدائه لديوان الحلاج إلى والده وكتاب الصلة إلى أستاذه النشار كذلك أهدى كتاب التراث الشعبي (ديوان الكان وكان في الشعر الشعبي العربي القديم) الصادر في بغداد ١٩٨٧(إلى من علمني أول حرف ، وأقرأني أول كلمة ، وأملاني أول جملة ، ففتح عيني على عالم المعرفة ، إلى معلمي الأول : الأستاذ السيد محيي الدين موسى أبو العيس أهدي هذا الكتاب تسجيلا لفضله ، واعترافا بجميله ، ووفاء له) وأهدى (ديوان فن القوما) في الشعر الشعبي العربي القديم الصادر في بغداد ٢٠٠٠ وهو من سلسلة خزانة الفنون الشعرية (إلى شيخي النبيل المرحوم الأستاذ عبد المجيد حسن ولي مدرس اللغة العربية في ثانوية الاعظمية سنة ١٩٤٤ م الذي كشف في، تحت رماد التوجه العلمي ، جمرة الأدب ،فأججها وأوقد نارها وأصلحها ، وقادني إلى لذائذ حرفة الأدب! أهدي ثواب هذا العمل ، واضرع إلى الحق – تعالى- أن يكلأه في عالم الأرواح كما كلأنا في عالم الأجساد) فهل هناك مثل هذا الوفاء والذكر الذي بر فيه الشيبي أساتذته وأصحاب الفضل عليه؟؟ انه درس في العلم والأخلاق وأدب الصحبة والتلمذة ذلك إن الشيبي لم ير نفسه إلا مريدا في حضرة هؤلاء الشيوخ على طريقة كبار المتصوفة والعارفين.

ومن كتبه الأخرى (الطريقة الصوفية ورواسبها في العراق) بغداد ١٩٦٧ و (الحب العذري ومقوماته الفكرية والدينية حتى أواخر العصر الأموي) بيروت ١٩٩٧ و (نشأة التصوف الإسلامي) بيروت ١٩٩٧ ، كما حقق وجمع العديد من الدواوين الشعرية منها (ديوان أبي بكر ألشبلي) بغداد ١٩٦٧ و (ديوان الفلك المحملة بأصداف بحر السلسلة) بغداد ١٩٧٧ . أما عمله الكبير في هذا الميدان فهو (ديوان الدو بيت في الشعر العربي في عشرة قرون) وهو من منشورات الجامعة الليبية ١٩٧٢ وحصل عليه الشيبي جائزة جمعية أصدقاء الكتاب اللبنانية لعام ١٩٧٢ وقد سألت الشيبي رحمه الله في أواخر أيامه عن أهم كتاب

نص الرسالة

عزيزي طه
صباح الخير
اتفقنا مع الشيخ محمد الكسنزاني أن نلقاه يوم الأحد(١٩٩٢/٣/٢٩) في تكيته
أرجو جمع إخوانك (يقصد طلبة الدكتوراه وانكر منهم محمد جلوب فرحان وعبد القادر موسى حمادي وعبد اللطيف جدوع) في الساعة العاشرة والاستئذان من شيخنا الدكتور القيسي (يقصد أستاذ التربية الكبير المرحوم عبد الرحمن القيسي الذي كان يدرسنا الوجودية) على مبادلة محاضرته بمحاضرتي أو اصطحابه معنا إلى التكية ، ولعله يرحب بذلك.
على العموم عليك بالمقدمات وسأتولى النتائج السارة إن شاء (الله)

اسلم لشيخك
كامل الشيبي
١٩٩٢/٣/٢٨

عراقيون
من زمن التوهج
العدد (2039)
السنة الثامنة
الخميس (10)
شباط 2011

أنجزه في حياته فأجاب انه (ديوان الدوبيت) مشيرا إلى الجهد المضني الذي بذله في جمع وتحقيق هذا الديوان لشعراء يمتد بهم الزمن لألف عام بالتمام والكمال! (الدوبيت تعني الرباعيات الشعرية). أما آخر ما صدر للراحل فهو كتاب طريف في موضوعه وشخصيته عنوانه (البهلول بن عمرو الكوفي .. رائد عقلاء المجانين)! الذي صدر عن المكتبة العصرية في شارع المتنبي ببغداد عام ٢٠٠٤.

أعود إلى ذكرياتي عن أستاذي وشيخي المبجل ، ففي منتصف التسعينيات وكنت قد أنهيت الدكتوراه عام ١٩٩٤ تفرقت بنا السبل مرة أخرى ، فقد اضطرته ظروف الحصار القاسي للسفر خارج العراق متنقلا بين الأردن وليبيا التي قضى فيها سنوات عديدة أستاذا في الجامعة الليبية، اذكر إنني التقيته في عمان وزرته في شقته وتبادلنا أطراف الحديث وقد سألته عن أحواله فأجابني بكلام موجز لكنه عميق مؤثر (المعدة شبعانة لكن الذهن مشغول)!!

بعدها عاد إلى العراق وتواصلنا من جديد بألفة ومحبة وصحبة طيبة ، وحدث إنني عينت بالوكالة رئيسا لقسم الفلسفة في كلية الآداب بجامعة بغداد نهاية آب ٢٠٠٢ ومع بدء السنة الدراسية ٢٠٠٢-٢٠٠٣ زارني الشيبي وكان قد تجاوز الخامسة والسبعين من عمره (الشيبي من مواليد ١٦ أيار ١٩٢٧) وكانت علامات تقدم السن وضعف البصر قد بانت عليه جلية واضحة،ليبدي رغبته بالعودة إلى الوظيفة أستاذا متمرسا في جامعة بغداد، وعلى الرغم مما قيل لي من البعض عن عدم قدرته للتواصل مع الطلبة والحضور إلى الدوام ، ألا إن أول مذكرة رفعتها إلى عميد كلية الآداب آنذاك الإنسان الطيب النبيل الأستاذ الدكتور قحطان سليمان الناصري كانت طلبا لإعادة الأستاذ كامل مصطفى الشيبي إلى الخدمة الجامعية ، وهمشت طلب العودة للخدمة : السيد عميد كلية الآداب المحترم .. يشرفني أن يكون أول طلب ارفعه لكم بعد تعييني رئيسا لقسم الفلسفة هو طلب إعادة أستاذنا الكبير كامل مصطفى الشيبي إلى الخدمة .... لقد كنت أقنع الآخرين إن الشيبي علم من أعلام الفلسفة الإسلامية والأدب والتصوف ،ويكفي قسم الفلسفة فخرا وشرفا لو تمكن الشيبي أن يحضر فيه ويجلس في مكتبه ولو لساعة واحدة في الأسبوع للاستشارة والإشراف..... وهكذا كان.

كنت أزوره في مسكنه إذا انقطع عن الدوام طويلا ، وكان يؤلمني أن أرى صحته تتدهور بسرعة يوما بعد آخر،وان المرض بدأ ينهش في جسده النحيل الضعيف، لكنه لم ينهش روحه الوثابة الحية المتوهجة مطلقا ، كان مرحا مع ضيوفه ومحبيه ،وكان مصرا على القراءة ..بنظارات سميكة أولا .. ثم بعدسة متحركة مضافة إلى النظارات.. وبعدها بعدسة أخرى أشبه بالناظور يركبه فوق النظارات والعدسة .. كل ذلك من اجل أن يقرأ كلمة أو جملة بنفسه من دون مساعدة أحد !! ولما شعرت إن أيامه باتت قليلة اصطحبت يوما ابن أخي زياد تركي المصور الفوتوغرافي والسينمي ومدير تصوير أول فلم عراقي بعد ٢٠٠٣ أخرجه الشاب المبدع عدي رشيد (غير صالح للعرض) وحظي باهتمام النقاد والمتابعين محليا وعالميا ، وقام زياد بتصوير الشيبي وهو يتحدث على سجيته من دون تكلف أو تصنع أو تحضير مسبق ، وبالفعل حصلنا على شريط خام مدته أكثر من ساعتين تم تسليمه لاحقا إلى الزميل العزيز علي حسين كمادة خام لمنتجته وإعداده للعرض في حفل استذكاره.

رحم الله كامل مصطفى الشيبي ..أستاذا وباحثا وأديبا ومفكرا ومتصوفا وإنسانا قل نظيره.

الشكر كل الشكر لمؤسسة (المدى) لإرسائها مثل هذه التقاليد الراقية المتحضرة للاحتفاء بأعلامنا ومبدعينا واستذكارهم....والتقدير كل التقدير للزميل العزيز المبدع المثابر علي حسين الذي لولا جهوده ماكان لهذا الملحق أن يرى النور .

عن الحلاج والشيبي وغروب الدرس الصوفي ..

قاسم محمدعباس

حينما وصلني نبأ رحيل أستاذي وصديقي كامل مصطفى الشيبي، قضيت وقتا طويلا أستعيد فيه مسيرة صوفي وباحث يشكل حلقة أخيرة من نهاية عصر ازدحم بالجدل والإبداع والتجديد، فبموت الشيبي يمكن القول إن مرحلة من مراحل الدرس الصوفي تقفل نهايتها على مشاريع كبرى ارتبطت بالحلاج والسهروردي والنفري، وبمساحات مجهولة من تاريخنا عموما.

الذي أنشأ تلك العلاقة بيني وبين الشيبي هو أحد هؤلاء العظام الذي تفرغ الشيبي لدراسة آثاره سنوات طويلة من حياته فالحلاج الذي جمع بيني وبين الرجل ظل حتى آخر لقاء بيننا هو هاجس الشيبي، فكما لم يكن الحلاج من الشخصيات التي تحتمل ان نخضعها للمقولات المألوفة كان الشيبي أيضا مثيرا للكثير من الجدل في طروحاته التي اتخذت من إعادة النظر في تاريخنا وتاريخ نشوء الحركات والمفاهيم والتصورات، فأعاد قراءة الكثير من تلك الأفكار والمواقف،الأمر الذي أدى إلى نشوء هجمة عنيفة حين صدور كتاب الصلة بين التصوف والتشيع،، ولم يتوان الشيبي عن عرض أفكاره بكل جرأة وشجاعة معيدا النظر في كل تفصيل بروح باحث مهووس بالحقيقة وحدها.

وكانت رحلته مع التصوف قد بدأت فعليا بعد أن شد الرحال الى آداب الإسكندرية ملتقيا بابي العلا عفيفي وهو أحد كبار دارسي ابن عربي، وجمعتهما علاقة وثيقة كان محورها الدرس الصوفي، فقد توفر للشيبي أن يتتلمذ على يد كبار العلماء فمنذ بدايات حياته في كتاتيب الكاظمية توفرت للشيبي رحلة علمية توجها بحصوله على الدكتوراه على يد المستشرق آربري الذي تابع معه اطروحته للدكتوراه، وكان الشيبي في كل تلك الانعطافات العلمية يتحرك بين فضاءات جيل من كبار المستشرقين والعلماء.

لقد وجد الشيبي في نفسه نزوعا كبيرا لدراسة كل ما هو مسكوت عنه ومجهول في تراثنا، وخلف لنا تراثا كبيرا ومهما توزع بين التصوف والفنون الشعرية والفلكلور.

عندما زرته المرة الاخيرة استأمنني الشيبي على ثلاثة كتب اعدها الآن للصدور عن المدى، أود هنا التعرض لحكاية واحد من هذه الكتب الذي طلب مني كتابة مقدمة له، فقد جمع الشيبي اشعار الموت في التراث العربي، وطلب مني أن أؤخر نشره قدر ما استطعت حتى يلتحق بالرفيق الاعلى، وبعد ان حاولت الاعتذار عن تحمل مسؤولية كبيرة كهذه، بفهم انه لا يتوفر لي تقديم كتاب لباحث باسمه وحجمه، ولعلامة كبير بمستواه، فاعلمته بحراجة الامر وانني حقيقة اشعر بالحرج من تقديم كتاب له، قال لي: كنت أتمنى ان تكون مقدمة كتابك عن موت الحلاج مقدمة لهذا الكتاب. اعتقد انك ستكتب مقدمة هذا الكتاب انا اطلب منك ذلك،فصمت وامتثلت لطلبه. فاتفقنا على ان اكتب مقدمة عن فكرة الموت صوفيا لهذا الكتاب.

اليوم وقد تلقفت يد الموت حياة الشيبي أجد نفسي في مأزق كتابة رثاء عن موت صديق واستاذ لم يدخر جهدا لتيسير الطريق أمام تلامذته، ولم يتكاسل عن ابداء ملاحظاته او يتأخر في الاجابة عن أسئلتي الكثيرة.

ستبقى صورة ذلك اليوم الذي حملت فيه نسخة كتابي عن الحلاج اليه يوما مهما في حياتي

يذكرني بمشهد طالما حلمت أن احياه بالقرب من باحث أصيل، وتلمست فرحه بصدور الكتاب وبدا فرحا لتعلق الامر بالحلاج، واكن الامر بالنسبة لي بمثابة مباركة للكتاب حقيقة، بفهم انه لا يحق لي اصدار شيء عن الحلاج دون استشارة استاذ جليل منح حياته قاطبة للدرس العلمي،وهو من القلائل الذين يحق لهم الحكم على الكتاب.

لقد بقي الشيبي وفيا للدرس الصوفي لم تتجاذبه تيارات التغيير السياسية، والانعطافات التي مرت بها البلاد، انه باحث بقي مخلصا للدرس وحسب، ولم يكن ليتحرى سوى الحقيقة التي لا ينشغل بها سوى طائفة من العلماء يتعالون فوق المصالح والتجاذبات، فقد كان الشيبي نموذجا لا يختلف عليه في هذا الصدد، واظن ان تلامذته في الجامعة قد لمسوا الحقيقة بوضوح.

اتذكر خطواتي المترددة وانا احمل اليه كتابي: الحلاج الأعمال الكاملة، مع فرحي الذي كان يغمرني وانا احمل نسخة من كتابي إليه، كنت لا اخفي حرجا من أنني كمن يحمل الماء لسقاء بغدادي أصيل.

اتذكر ذلك اللقاء وكيف تلمس غلاف الكتاب بصدق، وهو يقول:كتاب آخر عن الحلاج، دار بيننا كلام طويل عن الكتاب، وتوقف هو عند فكرة جمع الحلاج في كتاب واحد، وكان يميل الى فكرة ان هذا الكتاب لو كان قد صدر في وقت سابق لكانت له قصة أخرى، اتذكر الآن انه يستحق منا ان نعيد النظر في أدبيات الرثاء، فقد تحدث عن الموت،وتورط الاحياء به،

ولي عودة اخرى لرثاء استاذي الشيبي فالحديث بهذه العجالة عن شخصية كالشيبي يتطلب مقاماً آخر وحرية أكبر لكنني أراه محلقا بروحه العظيمة في فضاء الشوينزيه تحف به ارواح هؤلاء العظام وهم يستقبلون سالكا كبيرا لطريق التصوف، ررحم الله ابا طريف، الذي أقفل بموته حكاية عصر بأكمله، وأنهي على يديه صياغة درس امتد لاكثر من نصف قرن.

لتعد عليك الصباحات والمساءات يا ابا طريف بالسلام والسكينة ما اشرقت شمس وتنفس صباح

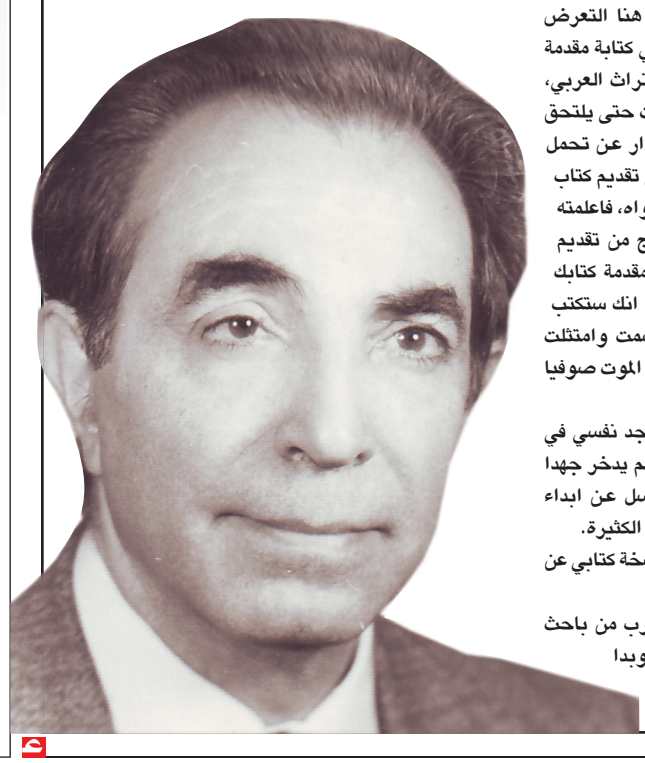

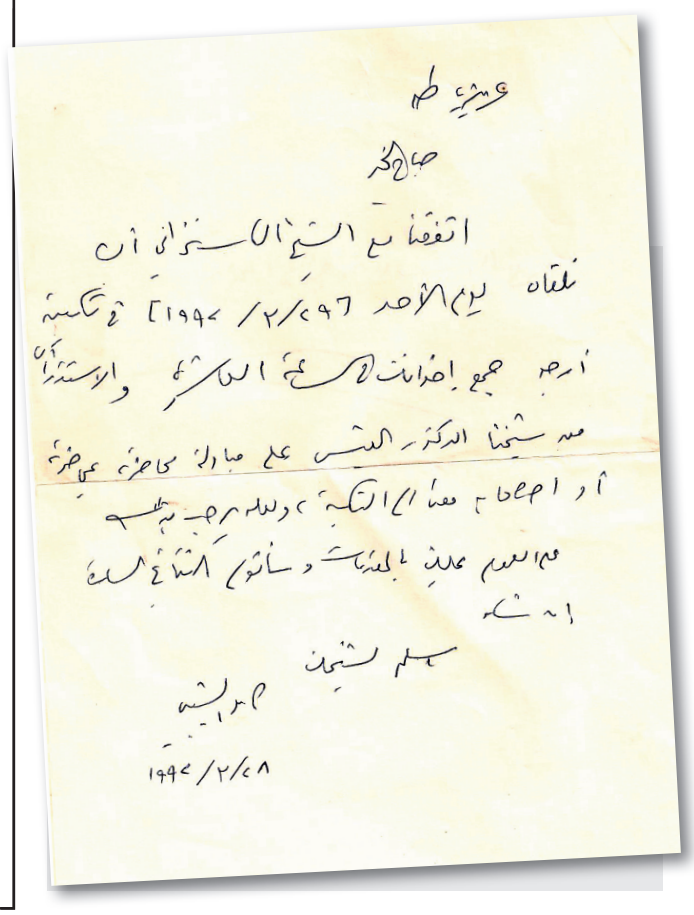

العراقيون
من زمن التوهج
العدد (2039)
السنة الثامنة
الخميس (10)
شباط 2011

في ذكرى العلامة كامل مصطفى الشيبي

جعفر عبد المهدي صاحب

قبل خمسة اعوام رحل إلى جوار ربه الأستاذ الدكتور كامل مصطفى الشيبي عن عمر يناهز التاسعة والسبعين , تاركا وراءه نتاجا علميا زاخرا بالعطاء أثرى به المكتبة العربية والعالمية في مجال الفلسفة واللغة والتراث والتصوف بشكل خاص . إن سبب كتابتي لهذا المقال يعود لدافع الوفاء لهذا الرجل العظيم الذي جمعتني معه رابطة الزمالة إذ عملنا سوية قرابة عقد من الزمن في قسم الفلسفة بجامعة السابع من ابريل في مدينة الزاوية الليبية .

ورغم أن الرجل عاد إلى العراق في مطلع القرن الحالي إلا أن صلتي به لم تنقطع، وشاءت الصدفة أن أقضي إجازتي الصيفية العام قبل الماضي في مصر فاتصلت به هاتفيا من القاهرة في السبت الأخير من شهر آب فكانت على الخط زوجته السيدة (سماح النفطجي) فعندما سألتها عن أبي طريف شعرت دون أن توضح لي بأنها فرحة لاتصالي الهاتفي لأن الاتصال سوف يلهيه بعض الوقت عن سكرات الموت التي يعانيها ، فأعطته الهاتف وقالت له معك فلان على الخط فتكلمت معه مستفسرا عن حالته الصحية إلا أنه تكلم معي برباطة جأش وأسمعني ضحكته المعهودة واسترسل في الكلام بكل بشاشة ، ومع ذلك أحسست بأنه في حالة صحية صعبة .

وبعد يومين من تلك المكالمة شاهدت على الشريط الإخباري لمعظم المحطات العراقية نبأ رحيل شيخنا الشيبي .

ونتيجة لظروف العراق الاقتصادية الصعبة خلال فترة الحصار الاقتصادي بعد أزمة الكويت جاء الفقيد إلى ليبيا لغرض العمل فعمل سنة واحدة في جامعة الفاتح بعدها تحول إلى قسم الفلسفة بجامعة السابع من ابريل

حياته :

ولد الدكتور كامل مصطفى الشيبي بالكاظمية عام ١٩٢٧ وأكمل دراسته الجامعية الأولية في جامعة بغداد ونال شهادة الماجستير عام ١٩٥٨ من قسم الدراسات الفلسفية بجامعة الإسكندرية وحصل على شهادة الدكتوراه في الفلسفة من جامعة كامبريدج في بريطانيا عام ١٩٦١ تحت إشراف المستشرق الشهير (آرثر جون آربري) رئيس قسم الدراسات الشرقية في الجامعة المذكورة .

عمل الفقيد محاضرا بجامعة بغداد منذ مطلع ستينيات القرن الماضي وتدرج في ترقياته العلمية فيها حتى نال لقب الأستاذية ثم منحته لقب أستاذ متمرس وهو من الألقاب النادرة التي تمنحها جامعة بغداد لأساتذتها المتميزين في مجال البحث العلمي .

وعمل المرحوم الشيبي بجامعة هارفرد في الولايات المتحدة الأمريكية لمدة سنة واحدة بصفة أستاذ زميل . وعمل أيضا أوائل سبعينيات القرن العشرين في الجامعة الليبية (الفاتح حاليا) .

ونتيجة لظروف العراق الاقتصادية الصعبة خلال فترة الحصار الاقتصادي بعد أزمة الكويت جاء الفقيد إلى ليبيا لغرض العمل فعمل سنة واحدة في جامعة الفاتح بعدها تحول إلى قسم الفلسفة بجامعة السابع من ابريل في الزاوية فكانت الفرصة الذهبية أن نعيش سوية سنوات عديدة وبمقربة منه بشكل يومي وتفصيلي إذ كنت رئيسا لقسم الفلسفة طيلة الفترة التي عمل فيها الشيبي بجامعة السابع من ابريل ، فكان الرجل نشطا حاد الذكاء سهل العريكة مرحا طيب النفس سريع النكتة ، وهذه الصفات نادرا ما توجد لدى رجل سبعيني .

ومن مواقفه المرحة أنه عندما نذهب لمكان ما أقدمه في مجلس للآخرين واذكر اسمه ومكانته العلمية يبادر هو مشيرا بيده علي " وهذا ولي أمري " .

إنتاجه العلمي :

للمرحوم الشيبي بحوث علمية معمقة عديدة يصعب سردها ولكثرتها بالإضافة إلى مؤلفاته الكثيرة أذكر منها كتابه (الصلة بين التصوف والتشيع) الذي ترجم إلى الإنكليزية والتركية والفارسية وأثار لغطا كثيرا في الأوساط العلمية بين قادح ومادح كل حسب هواه .

ومن كتبه الحب العذري وصفحات مكثفة من تاريخ التصوف والبهلول الكوفي سيد عقلاء المجانين ، ورباعيات الخيام باللهجات العامية العربية ، والعجلي العضلي أول مظلي في التاريخ وديوان القومة وديوان الدوبيت الذي نال جوائز عالمية وعربية والفكر الشيعي والنزعات الصوفية وحقق رواية دون كيخوت وديوان الحلاج وكتاب الطواسين ، وحقق كذلك ديوان الكان وكان وديوان الشبلي البغدادي ، وعلى أثر هذه التحقيقات لقب الشيبي بعاشق المهمشين في التاريخ .

ونقلت لنا زوجته خبرا يقول بأن أبا طريف في أيامه الأخيرة وضع مخطوط كتاب على الطاولة تحت عنوان (عن الموت) أوصى بطبعه بعد وفاته . وأوصى أهله بأن تفتح مكتبته العامرة بنفائس الكتب للباحثين وطلاب العلم .

إن من يتعامل مع الشيبي يشعر بأنه مثال للإنسان المتفتح الوافر العطاء الجواد في الإرشاد والتوجيه من غير تكبر إذ كانت الكياسة والتواضع من أبرز خصاله ، فهكذا كان الفقيد مع زملائه وطلابه .

سامرائي لا يعرف الملوية :

وكما كان الشيبي مبدعا بصنعة التأليف كان أيضا من المبدعين بصنعة التعليم الجامعي بشقيه الأولي والدراسات العليا ، وبهذه المناسبة أذكر واقعة حدثت عام ١٩٩٩ ، فقد كانت مادة التصوف مسندة إليه في الدراسات العليا منذ بضع سنوات ، ففي ذلك العام عاد دكتور ليبي شاب بعد أن حصل على الدكتوراه في التصوف من بلد عربي مجاور لبلده وأصر على تدريس تلك المادة بدلا من الشيبي دون أن يعرف قدره ، وهذا مؤشر واضح بأن الدكتور اليافع أشبه برجل يدعي أنه من أهل سامراء ولا يعرف المأذنة الملوية ، هكذا كان واقع الحال لأن من يذكر مادة التصوف في الأوساط الأكاديمية على مستوى الوطن العربي لا يمكن أن يتجاوز الدكتور كامل مصطفى الشيبي إطلاقا .

إن تصرف الدكتور الشاب جعل أساتذة القسم بموقف محرج وأصابني شخصيا إحراج مضاعف بسبب موقعي كرئيس للقسم لكن شيخنا الشيبي بدد إحراجنا جميعا عندما تنازل عن تدريس تلك المادة بكل رحابة وطيب خاطر .

ورغم موقف الشيبي إلا أن هذا لا يعني أن القسم لا يستغل وجود عالم من هذا الطراز للاستفادة منه في الدراسات العليا فأسندت له مادة غير أساسية (دراسات مستقلة) ولكن إسناد هذه المادة غير الأساسية للشيبي سجلت حدثا لا يمكن نسيانه إذ انتهت السنة الدراسية وكانت المفاجأة حيث هرع طلاب الدراسات العليا من الأقسام الأخرى (غير قسم الفلسفة) بتصوير المادة التي ألقاها الشيبي على طلبته . وانتقلت عدوى التصوير إلى الأساتذة وكاتب هذه السطور واحد منهم ، لأنهم وجدوا فيها زادا علميا دسما .

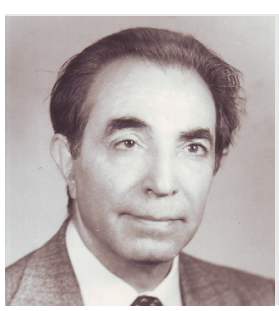

عمل الفقيد محاضرا بجامعة بغداد منذ مطلع ستينيات القرن الماضي وتدرج في ترقياته العلمية فيها حتى نال لقب الأستاذية ثم منحته لقب أستاذ متمرس وهو من الألقاب النادرة التي تمنحها جامعة بغداد لأساتذتها المتميزين في مجال البحث العلمي.

عراقيون
من زمن التوهج
العدد (2039)
السنة الثامنة
الخميس (10)
شباط 2011

وذلك لغزارة المعلومات وموسوعية فكر المحاضر .

إن مفردات المادة غير الأساسية (دراسات مستقلة) جعلها الشيبي تتضمن تحقيق المخطوطات ، وتعليم حساب التاريخ الشعري (كيف يكتب التاريخ بكلمات الشعر) وهذا يتطلب تعليم الطلاب ما يقابل حروف العربية بالأرقام ، وتضمنت المحاضرات أيضا العلامات والرموز لدى الكتاب العرب قديما وحديثا ، وجداول بعلامات التنقيط والترقيم الروماني وحروف الأبجدة والأبتثة (حروف الجمل) والمصطلحات الفلسفية واليونانية والإنكليزية واشتقاق العربية من الآرامية ومقارنة بين الحروف العربية والحروف السبئية مع تعليم الطلاب كتابة أسمائهم واسم جامعتهم بتلك الحروف ، وترتيب الحروف في كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي وأصول كتابة الجمل الاعتراضية وغيرها من المواضيع التي يشتاق لها كل كاتب أو باحث .

خوفو وخفرع ومنقرع :

كان قسم الفلسفة في جامعة السابع من ابريل من أرصن أقسام الفلسفة على مستوى الوطن العربي لوجود ثلاثة أساتذة أعلام أجلاء يعملون فيه : أ . د . كامل مصطفى الشيبي و أ . د . جعفر مرتضى آل ياسين و أ . د . كريم متي ، وهؤلاء الأعلام الثلاثة كان يتوافد عليهم باستمرار طلاب الجامعات الليبية للاستشارة عليهم رحمة الله جميعا.

كان د . جعفر آل ياسين يعتني بهندامه كثيرا على الطريقة الأكسفوردية (نال الدكتوراه من جامعة أكسفورد) في حين أن د . الشيبي لم يعط الهندام شأنا وهو ذو روح شعبية ميالة إلى البساطة وكذلك د . متي .

جميعا كنا نسكن في الحي الجامعي الذي يبعد حوالي ثلاثة كيلومترات عن مبنى الكلية ، وغالبا ما أنقل الشيوخ الثلاثة معي في سيارتي الخاصة ، فالشيبي ومتي يدفعون بآل ياسين أن يجلس في (الصدر) وهما يجلسان في القسم الخلفي من السيارة ، وفي ذات يوم وبشكل مقصود حاولت أن أفجر لغما من المزاح معهم فقلت لهم يبدو أنكم متشددون وملتزمون عمريا لأنكم تجلسون في مقاعد السيارة حسب تدرج أعماركم . أجاب الشيبي على الفور لا هذا خوفو (وأشار إلى كريم متي) وأنا خفرع وهذا جنبك (يقصد آل ياسين) منقرع وأضاف بالعامية " هذا بجنبك النونو مالنا " لقد ضحكنا لقول شيخنا الشيبي ذلك القول الذي يدل على سرعة البداهة وطيبة النفس وخفة الحديث الذي لا يخلو من الدحة والمرح .

باحث جريء:

نقل لي الشيبي انه ذات يوم نشر فيه بحثا في مجلة تراثية عراقية يبين فيه ان العصمة (عصمة الأئمة -ع-عند الشيعة الجعفرية) هي نظرية لاحقة أدخلت على الفكر الشيعي خلال القرن السابع الهجري أثناء انتقال الحوزة العلمية من النجف إلى الحلة. ففي تلك الحقبة تعرض الشيعة إلى أبشع أنواع الاضطهاد من قبل أنظمة الحكم السائدة مما جعل عامة الناس تتشبث بأضرحة الأئمة إلى درجة كبيرة جدا مما جعل رجال الحوزة الحلية أن يجتهدوا نظرية العصمة لكي يقطعوا الباب على الإلوهية ، أي خوفا من تأليه الأئمة من قبل عامة الناس. ويواصل الشيبي حديثه قائلا: إنه بعد نشر المقال وصدور المجلة اتصل بي الدكتور احمد الوائلي وقال:أبو طريف- كيف تنشر بحثا من هذا النوع.فقلت له: أبو سمير كلامي يمثل الصواب أم الخطأ. فقال: كلامك صحيح.فأجبته إذا كان صحيحا فلماذا نخاف من القول الصحيح.

الشيبي مع عدد من زملائه في احدى مقاهي بغداد

الشيبي معروف بعلمه:

في عام ١٩٩٥ كنت وعائلتي اقضي عطلة الصيف في العاصمة الأردنية عمان فوجدت موضوعا في إحدى الصحف الأردنية يتحدث عن عملاق الأدب الليبي الأستاذ علي مصطفى المصراتي فأعجبني المقال وأعجبتني السيرة الذاتية لذلك العالم الفذ . فاحتفظت بنسخة الصحيفة وحملتها معي إلى ليبيا على أمل أن التقي بالأستاذ المصراتي. وبالفعل أخذت اسأل عنه حتى قيل لي انه يتواجد أحيانا في الفندق الكبير في طرابلس. وأخذت أتردد بين الحين والآخر على ذلك الفندق عندما اذهب إلى طرابلس إلى أن شاءت الصدف أن أجده أمامي وكانت بصحبتي طفلتي رغدة وكان عمرها آنذاك عشرة أعوام.فقدمت له نفسي وتعرفت عليه وأعطيته نسخة الصحيفة الأردنية وأهديت له ثمانية كتب من مؤلفاتي.

كان استقباله لنا قد عكس تواضع العلماء وسمو مقامهم ، وقبل توديعنا نهض معنا وقادنا إلى مكتبة الفرجاني في شارع الأول من سبتمبر خلف الفندق واشترى أكثر من عشرة كتب من مؤلفاته من بينها (قصة القرد في المطار) وكتب عليها بخطه إهداء جميلا إلى ابنتي رغدة وكتب كذلك على بقية الكتب الأخرى إهداء لي. وقبل توديعه لنا سألني: أين حل الدهر بالدكتور كامل مصطفى الشيبي؟ فاندهش عندما قلت له انه معنا في ليبيا يعمل في جامعة السابع من ابريل في الزاوية ، فطلب مني أن يلتقي معه. وعندما عدت إلى الزاوية أخبرت أبا طريف برغبة الأستاذ المصراتي فقال: وأنا ابحث عنه. وفي اليوم التالي حققت اللقاء بينهما وكنت اعتقد بأن الاثنين يعرفا بعضهما من قبل ، ولكن سياق الحديث الذي جرى بينهما يؤكد بجلاء أنهما يلتقيان لأول مرة. واخذ كل واحد منهما يناقش أفكار الآخر المنشورة خلال ستينيات ذلك القرن-القرن العشرين- فعلمت أن العلم قد جمع بينهما منذ عقود طويلة رغم عدم التقائهما بشكل شخصي. ومن طريف ما يذكر في ذلك اللقاء انه قد انضم إلى جلستنا ضيف عربي – مدير عام المكتبات في البحرين- فدار الكلام حول البرلمانات فذكر الضيف بان فلان الفلاني كان أول رئيس لبرلمان البحرين ، فنط المصراتي مصححا للرجل تاريخ بلاده : لا إن أول رئيس لبرلمان البحرين هو علي العريض وكانت لي صلة به.

طبائع تعلمتها من الشيبي:

تعلمت منه أن اكتب مسودات مؤلفاتي على أوراق صغيرة(اقسم كل ورقة إلى قسمين) وذلك لسهولة الإلغاء عند التعديل أو عند حدوث خطأ أثناء الكتابة. وتعلمت منه أيضا ترتيب الأوراق النقدية بالمقلوب قبل أن يضعها في جيبه، أي يجعل الورقة الأصغر إلى الخارج ثم تليها الفئات الأكبر ويثنيها إلى نصفين فعندما يخرج النقود من جيبه يظهر الربع دينار أولا ثم تليه بقية الفئات.

وهي طريقة أسهل أثناء الدفع والتعامل بالنقود.والاهم من ذلك كله تعلمت منه عبارة قالها لي لا زالت ترن في أذني ، إذ قال:" الذي خلَف ما مات. وأنا أقول الذي ألَف ما مات) أي الذي يترك مؤلفات بعده لا يعد من عداد الموتى. يا لها من حكمة عظيمة تصدر من لسان حكيم.

فضل لا ينسى :

في أحد الأيام وجدني في بيتي منهمكا في ترجمة مقال فقال ماذا تعمل ؟ فأجبته بأني أعد مقالا لصحيفة البوليتيكا اليوغسلافية فسألني مرة أخرى وماذا تكتب ؟ قلت له عن أزمة البوسنة التي كانت مشتعلة عام ١٩٩٣ . فقال لي من الأفضل أن تكتب عن قضاياهم بالعربية وتكتب عن قضايانا باليوغسلافية .

لقد كانت كلماته المعدودات عاملا كبيرا في تبديل نمط تفكيري الأكاديمي فأخذت أكتب عن البلقان باللغة العربية فصدرت لي ثمانية كتب بهذا الشأن وأصبحت بفضل الشيبي خبيرا أكاديميا في الشؤون البلقانية ، ومما يذكر أن كتابي الأول (الصرب الأرثدوكس الطائفة المفترى عليها) كتب الفقيد تقديما جميلا له.

وبواسطة العلامة الشيبي تعرفت على الأديب الموسوعي الأستاذ الدكتور عبد الإله الصائغ أطال الله في عمره ولازلت في تواصل معه رغم آلاف الكيلومترات التي تفصلنا عن ميشيغن التي حط رحال الصائغ فيها بعد رحيله من اليمن على أثر المضايقات التي واجهها هناك بسبب مواقفه السياسية النظيفة.

هكذا هم المفكرون المبدعون من أمثال فقيدنا المرحوم كامل مصطفى الشيبي ينثرون الخير ويرشدون الآخرين بروح من التواضع والسمو بلا تكبر .

رحم الله الشيبي الذي عاش مبدعا فذا وترك لنا كنوزا علمية خالدة ، سيبقى بعد موته يعد حينما يعد رجالات العراق من المبدعين والمفكرين

مع مظفر النواب والدكتور جميل نصيف

عراقيون
من زمن التوهج
العدد (2039)
السنة الثامنة
الخميس (10)
شباط 2011

قراءة في كتاب الشيبي

البهلول بن عمرو الكوفي رائد عقلاء المجانين

باسم عبد الحميد حمودي

اول البهاليل –كما يكشف العلامة د. كامل الشيبي في كتابه الجديد– هو الطفيل بن حكيم الطائي الذي تباله وتبهلل ليتخلص من سيف ونطع الحجاج بن يوسف الثقفي واستطاع بدهائه ان يتخلص من ميتة ظالمة، وكم فعل الفقهاء والادباء ذلك ليتخلصوا من ظلم يكاد يقع عليهم او من موت لا يطيقونه، فقد ثار الطفيل الطائي مع رجال عبد الرحمن بن الاشعث ضد الدولة الاموية يوم كان الحجاج حاكمها في العراق –وكم من ابن يوسف حكم هذا البلد المبتلى– ثم اسر مع غيره من القراء والفقهاء واقتيدوا الى الحجاج والجلاد الى جواره فقال الحجاج: أطفيل؟ قال: نعم، يا حجاج، طفيل. قال الحجاج: ألم تقدم العراق اعرابياً، لا يفرض لمثلك ففرضت لك؟ (اعطيتك المال والحقوق) قال طفيل: بلى، قال الحجاج: فما اخرجك عليَّ؟ قال الطفيل: ابا محمد، ان رأيت تأذن لي حتى الحق بأهلي؟ قال الحجاج: فأنت مشتاق اليهم؟ فقال: نعم يا حجاج، فقال الحجاج: ذهب –والله– عقل الرجل، سواء عليّ قتلت هذا ام قتلت مجنوناً (لا حرج عليه ولا مسؤولية) خلوا عنه. قال الراوي: والله لقد كان طفيل بن حكيم من اعقل الناس وادهاهم ولكنه اوهم الحجاج انه ذهب عقله فأفلت من يده.

بذلك يفتتح الشيبي كتابه عن (البهلول بن عمرو الكوفي – رائد عقلاء المجانين) وهو كتاب صدر حديثاً للمؤلف وقد سبقت هذه الحكاية تعاريف لغوية بأصل كلمة بهلول واسماء بعض البهاليل من العرب لكنهم لم يتبهللوا قيا اي لم يدعوا الجنون وهم عقلاء ولم يفعلوا ما يسيئ الى حاكم وهم يتقصدون ذلك محتمين بسياج من الوهم في ضعف عقولهم وهم الادق عقلاً والاشد ذكاء لكنهم يتقون سيف الحاكم وجرمه باظهار الغريب وقوله.

والبهلول الكوفي هو بهلول بن محمد الصيرفي الكوفي كما ينسبه الطوسي الذي ذكر انه من اصحاب الامام جعفر الصادق (ع) لكن الكتبي يقول انه البهلول بن عمرو الصيرفي وانه عمر طويلاً حتى الثمانين وقد عاصر البهلول عدة خلفاء اولهم موسى الهادي وله اخبار طريفة مع الرشيد حتى قالوا انه اخيه ومع زبيدة زوجته وابنتها المفترضة حمدونة التي تروي مغامرات غريبة مع المبهلول اشار اليها صاحب (الروض العاطر) ولم يشر لها الشيبي تعففاً ولكن من ذكره مثل الابي والجاحظ قال انه من عقلاء المجانين.

ويتابع الشيبي تفاصيل حياة البهلول واقترانه بالمحدثين والقراء ومنهم عمرو بن دينار ومحمد بن اسماعيل الكوفي معداً تأثير الامام الصادق عليه هو الاكثر وانه كان شيعياً معتدلاً متفقهاً وقد ذكر الشيبي الكثير من نوادره وجرأته على الخلفاء والولاة وطرائفه مع من يريد ان يسخر منه ومن ذلك (انه مر بقوم وهم تحت شجرة عالية مستظلين بها فقال بعضهم: تعالوا نسخر من البهلول، فقال احدهم (له): يا بهلول اتصعد هذه الشجرة وتأخذ من الدراهم عشرة؟ فقال نعم، فأعطوه الدراهم فصرّها في كمّه ثم قال لهم: آتوني بسلم، فقالوا: لم يكن سلم في شرطنا، فقال: كان في شرطي دون شرطكم، واخذ الدراهم ومضى. وله من صفات حسن التخلص الكثير مما ذكره الشيبي الذي وقف عنده شاعراً رقيقاً ومجنوناً عاقلاً وفقيها، ويحلل الشيبي ظاهرة البهللة بقوة السلطة وظاهرة الوسوسة بكونها ظاهرة معروفة في المجتمع العربي في القرنين الثاني والثالث الهجريين وان من هؤلاء الموسوسين ارسيموس اليوناني ورمطة بنت مُر كما يذكر الجاحظ ويعزو الشيبي ظاهرة الوسوسة في تنفيذ عمل ما وخصوصاً الاعمال الابداعية والفكرية بوجه عام الى تأثير الفلسفة اليونانية على الفكر الاسلامي الناقل والمترجم وان ذلك كان مألوفاً ايضاً في مجتمع المتصوفة.

في القسم الذي عنونه المؤلف (البهلول زاهداً) حلل الشيبي زهد البهلول بخوفه من الآخرة وبالنزعة الى التصوف والرغبة في مباعدة الاحياء ومن ذلك ان قوما رأوه في بعض المقابر وقد ادلى رجليه في قبر وهو يلعب بالتراب فقيل له: ما تصنع هنا؟ قال: اجالس قوماً لا يؤذونني وان غبت لا يغتابونني، ونظن ان ترك البهلول لعمله كصيرفي وانصرافه للتفقه ثم تبالهه بعد ذلك كان بسبب افكاره التي يختلط فيها الفكر الصوفي بالفكر الامامي وهو بذلك كان يسيج نفسه عن سوء ظن الحاكمين باظهار الجنون خلاصاً من الشر القادم.

ويسترسل المؤلف في ايراد صور حركة البلهول في ميدان التصوف واقواله وافعاله ودعم ابن عربي لموقف البهاليل حتى يصل بنا الى تحقيق مكان قبره وهو الموضع الحالي في مقبرة الجنيد البغدادي بالكرخ القريبة من مقبرة المتصوف الاخر معروف الكرخي وزميلهما الثالث الحلاج اضافة الي وجود قبر اخر لحكيم صوفي من سيخ الهند اسمه بابا نانك لدينا وكدرونانك بتسمية اتباعه من السيك والعلامة الشيبي يلمح الى نظرية تناسخ الارواح التي يؤمن بها السيك ويدعو باحثين اخرين لدراسة تأثيرات المتصوفة المسلمين المدفونين في المقبرة الشوينزية التي دفن فيها البير السيخي (او كانت مقاماً له) لفكر البابا نانك ورحلته من الهند الى العراق وهو امر جدير بالسعي العلمي والمراجعة وهو يشير الى تقديس الهنود للشيخ الكيلاني ولشاه بهلول البركي الجشتي السهروردي ورأينا هنا الا علاقة لهذه القداسة او التقديس للكيلاني والسهروردي بموضوعة تناسخ الارواح ذلك ان الشيخين مسلمان متصوفان معروفان بورعهما ولكن. في التصوف تخاطر وفي التصوف توق الى اتصال بالذات الاعلى والاقدس، والحق ان دعوة العلامة الشيبي للبحث في هذا الجانب دعوة هامة دون ريب.

من امتع الصفحات في كتاب الشيبي هذا استعراضه للبهاليل الاخرين في كل ارض وقد اورد منهم –غير الذين اشرنا اليهم– من اسماه احمد بن عروس التونسي الذي نوه به بروكمان ويحيى بن عثمان صاحب القصيدة الزجلية الفياشية التي مطلعها:

انا مالي فياش؟ ايش عليا مني؟!
اقلق من رزقي لاش والخالق يرزقني

وهو الدور –المقطع الاساس– للقصيدة التي حورت وغنيت في ما بعد ضمن دور غنائي مشهور يبدأ بـ(ايش عليا من الناس؟ اش على الناس مني؟) وكان الأديب والشاعر المصري مسعود شومان قد اصدر كتاباً عام ٢٠٠٠ عن دار سما بالقاهرة تحت عنوان (مربعات ابن عروس) اذ قام بدراسة حكاية هذا البهلول وحقق شعره اذ يورد روايات متعددة عن ولادته في تونس واخرى عن ولادته في صعيد مصر وان الكثير من شعره في فن (الواو) وهو المربع قد دخل السيرة الهلالية والاغاني الشعبية باقلام بيرم التونسي وصلاح جاهين وعبد الرحمن الابنودي وسيد حجاب دون ذكر لاسمه ومنها قوله:

مسكين من يطبخ الفاس
ويريد مرق من حديدة
مسكين من يصحب الناس
ويريد من لا يريده
سلم امرك لمولاك
داري بحالك وعالم

كنسر في يوم لقياك وترتد للأهل غانم

وغير ذلك من الحكم والمواعظ التي دخلت في الوعي الشعبي في الشمال الافريقي العربي.

ويتابع د. الشيبي في قسم اخر من هذا الكتاب الجاد صورة البهلول في الادب الاوربي ويشير الي مفاتيح بحث جديدة للاساتذة عبد المطلب صالح و د. حكمة الاوسي ومرتضى الشيخ حسين و د. عبد الرحمن البدوي بشأن تأثيرات البهلول لكن الاهم منها هي دراسة الشيخ حسين (دون كيخوت.. الانتصار والفشل) التي يوضح فيها تأثيرات البهلول الكوفي على (صناعة) الدون كيخوت عبر ابي حامد الايل وظمور شخصية علي الفياش فيها وخبالات كيخوت نفسه وصاحبه وتابعه (العاقل) سانشوبانزا ثم يطرح د. الشيبي سؤالاً حيوياً يتمنى ان يجد من يجيب عنه عملياً وهو الحصول على الكتاب الشعبي الخاص بقصص البهلول الذي ذكره نيبور في رحلته الى بغداد والشرق.

اخيراً نقول ان العلامة الشيبي في هذا الكتاب قد حقق الكثير لا في شخصية (شخوص) البهلول فحسب بل في معنى البهللة ايضاً. وساح بنا في الكثير من الاحداث والشخوص والتجارب وفتح المجال عريضاً للكثير من الاسئلة التي تتطلب المتابعة والتحقيق وهي تعبير عن حب كاتب كبير مثله للمعرفة وسعيه الى تحقيقها دوماً

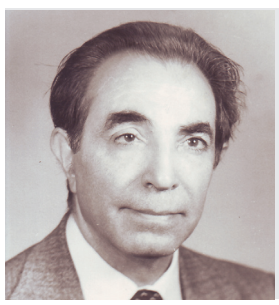

يفتتح الشيبي كتابه عن (البهلول بن عمرو الكوفي - رائد عقلاء المجانين) وهو كتاب صدر حديثاً للمؤلف وقد سبقت هذه الحكاية تعاريف لغوية بأصل كلمة بهلول واسماء بعض البهاليل من العرب لكنهم لم يتبهللوا قيا اي لم يدعوا الجنون وهم عقلاء

عراقيون
من زمن التوهج
العدد (2039)
السنة الثامنة
الخميس (10)
شباط 2011

كامل مصطفى الشيبي.. حياة زاخرة بالعطاء

د. علياء محمد

يعد الاستاذ الراحل الدكتور كامل مصطفى الشيبي انموذجاً للمفكر العراقي في ريادته وابداعه وشاخصاً حياً على تجليات العقل العراقي حينما يرتقي آفاق الفكر والمعرفة في وقفات تخط سفر الراحل وتسطر صفحات الابداع العقلي العراقي في التفلسف والتصوف والشعر والنثر والتحقيق والتدقيق والشكل والمضمون ففاض وجوده المشهود في تخصصه الاكاديمي عبر مساهماته الفكرية المعمقة للبحث الصوفي على المستوى الاكاديمي وعلى مستوى الدرس الصوفي الجامعي وهذه نافلة له سبق الفضل في توكيدها وارساء ملامحها حتى عد معلماً فكرياً هاما ومرحلة بدء وتاسيس في تطور الدرس الصوفي الاكاديمي، وخط حضوره المشهود في ريادة الفكر الصوفي عراقياً وعربياً فريادته العراقية تتأتى من توطيد وتوجيه مساهماته الفكرية سير الدراسات الصوفية جامعياً وبحثياً حتى وسمت مؤلفاته بالدراسات الاكاديمية الجادة والمتحررة من نظرات التعصب والانغلاق والجمود الفكري ليخط في الوقت نفسه ريادته العربية عبر مساهمات فكرية وصفت بكونها مواجيد وجد صوفي اشارت الى وجوده وعبرت عن حضوره في الفكر الصوفي ووومضات سيرة شخصية وتجربة ذاتية بين سواطع الفلسفة ولوامع التصوف سطرتها انامله بعد ما اراح ذهنه المتعب وفكره المثقل من هموم الباحث والاكاديمي والاستاذ المربي.

ولد الدكتور كامل مصطفى الشيبي في الكاظمية (بغداد) في ٦ نيسان ١٩٢٧ واكمل تعليمه الابتدائي والثانوي في الكاظمية والاعظمية، نال درجة الليسانس في الاداب من جامعة الاسكندرية سنة ١٩٥٠ ودرجة الماجستير في الفلسفة الاسلامية منها ايضاً سنة ١٩٥٨ نال درجة الدكتوراه من جامعة كمبردج سنة ١٩٦١ بدأ عمله الجامعي في كلية الاداب بجامعة بغداد سنة ١٩٦١ استاذاً للتصوف وعلم الكلام، تنقل في مصر وليبيا والولايات المتحدة استاذاً زائرا ومنتدباً وباحثاً

نال جائزة جمعية اصدقاء الكتاب اللبنانية على كتابه (ديوان الدوبيت في الشعر العربي) سنة ١٩٧٢ ونال لقب استاذ متمرس في كلية الاداب سنة ١٩٨٦.

ومن مؤلفاته (الصلة بين التصوف والتشيع) تناول الكتاب الصلة بين التصوف والتشيع وعلى وفق نظرة تأريخية تحليلية مدققة على وفق الاتجاهات الفكرية التي ظهرت في الحياة الاسلامية، اذ يعد الفكر الصوفي من بين هذه الاتجاهات التي تنظم الحياة والمجتمع عبر التقائه بالفكر الاسلامي وتوجهاته الفكرية الكلامية والفقهية والفلسفية

وبدأ المؤلف كتابه ببيان بدايات الاسلام وتصوراته على نحو موضوعي خالص وترك للحقائق وحدها تأسيس الاراء والافكار دون تحيز

صدر الكتاب في طبعته الثالثة عن دار الاندلس ببيروت سنة ١٩٨٢ بجزئين يقع الجزء الاول (العناصر الشيعية في التصوف) في ٦٦٣ صفحة ويقع الجزء الثاني (النزعات الصوفية في التشيع) في ٥٣٥ صفحة.ومن مؤلفاته الاخرى (ديوان ابي بكر الشبلي) جعفر بن يونس المشهور بدلف بن مجدر.

يرى المؤلف في الشعر الصوفي للشبلي نفحات وجدانية ويرى في الشبلي نفسه انموذجاً للشاعر الصوفي المعبر عن وجدان لا يتوقف ولايغلب ولا يقارن ومشاعر انسانية تصدر في عبارة ليس فيها تخير فهو لم يعتنِ بجمال الالفاظ ولا تكلف في صناعته للمعاني الزهدية

صدرت الطبعة الاولى من الكتاب عن مطابع دار التضامن بغداد سنة ١٩٦٧ ويقع في ٢٢٩ صفحة.

اما (ديوان الدوبيت في الشعر العربي) فيعد في سلسلة اهتمامات الدكتور الشيبي بالتراث الادبي وخاصة اولئك الشعراء الذين يمثلون هذا النوع من الشعر في القرن السادس الهجري كالارجاني والحموي وغيرهم والهاجري والشاب الظريف وغيرهم من شعراء القرن السابع وابن المرحل والصفدي من شعراء القرن الثامن الهجري ولشعراء القرن التاسع والقرن العاشر الهجريين حفل دوبيت الشيبي بتراجمهم وشعرهم

صدرت الطبعة الاولى من الكتاب عن دار الثقافة ببيروت سنة ١٩٧٢ ويقع في ٧٥٤ صفحة.

اما (ديوان الحلاج) فلعل اهتمام المؤلف بالحلاج هو ما حدا به الى جمع اخباره واشعاره وبيان آرائه ومذهبه الصوفي والتفرغ الى جمع ديوانه وتحقيقه وتصديره وصدرت للكتاب طبعتان

اما الطبعة الاولى فصدرت سنة ١٩٧٤ بينماصدرت الطبعة الثانية للكتاب عن دار آفاق عربية بغداد سنة ١٩٨٤ يقع في ١٧٩ صفحة

(شرح ديوان الحلاج)

لعل ما تميز به الحلاج من شطحات متطرفة جادة جعلته عصياً على الباحث والقارئ على حد سواء فكل ما حفل به ديوانه يدعو الى مزيد من البحث والتعمق والى الشرح والتعليل والتأويل لبيان ما اشكل من عباراته وما اغمض من اشاراته على وفق الالفاظ اللغوية والاصطلاحية والشعرية التي طرقها الحلاج. صدرت الطبعة الاولى من الكتاب في جزئه الاول عن مكتبة النهضة بغداد سنة ١٩٧٤ ويقع في ٤٧٥ صحة.

اما (الحلاج موضوعاً للاداب والفنون العربية والشرقية قديماً وحديثاً) يرى المؤلف في الحلاج شخصية متفردة متميزة في السلوك والفكر والمعرفة ما جعله انموذجاً للدرس والبحث والتقصي من جانب وموضوعاً للربط بين الماضي والحاضر او بين التراث والمعاصرة اي بين التعلق بالرمز وبين التثبت بالتفصيلات تفنيداً صدرت الطبعة الاولى للكتاب عن مطبعة المعارف بغداد سنة ١٩٧٦م ويقع في ٤٥١ صفحة.

اما ديوان (الكان وكان) في الشعر الشعبي العربي القديم ينهج الدكتور الشيبي في هذا الديوان منهجية التصدير بمقدمة فنية وتقديم لنصوص مسبوقة بترجمة قصيرة لقائليها ومن ترتيب لها ترتيباً تنازلياً بحسب تاريخ وفيات قائليها صدرت الطبعة الاولى من الكتاب عن دار الشؤون الثقافية العامة بغداد سنة ١٩٨٧ وتقع في ٣٩١ صفحة.

ومن مؤلفاته ايضاً (الحب العذري) ومقوماته الفكرية والدينية حتى اواخر العصر الاموي يثبت المؤلف في كتابه وعلى وفق قراءة واقعية تاريخية كون الحب العذري ظاهرة اجتماعية خالصة ومألوفة ترسخت في البيئة العربية القديمة قبل الاسلام من جانب كون الاسلام لم ينه عن هذه الظاهرة ولم يقاومها من جانب اخر وكون الحب نفسه ظاهرة انسانية تعلو على الزمان والمكان من جانب ثالث صدرت للكتاب طبعتان عن دار المناهل بيروت صدرت الطبعة الاولى ١٩٩٧ في حين وردت الطبعة الثانية بلا تاريخ ويقع في ١٦٠ صفحة.

اما (ديوان فن القوما) في الشعر الشعبي العربي القديم يرى المؤلف في القوما فناً نادراً وموسمياً وان تعددت الوانه وطرازه، شعراؤه قليلون ونشأته وشهرته عراقية لأنه نشا في اواخر الدولة العربية العباسية في العراق وانتشر في مصر والقوما من عنوان الكتاب هو المصطلح الذي يطلق على الشعر الشعبي الذي يخاطب المثنى او الاثنين حتى سجلت ظاهرة في الشعر العربي صدرت طبعته الاولى عن دار الشؤون الثقافية العامة آفاق عربية في بغداد ٢٠٠٠ ويقع في ١٤٠ صفحة.

وفي كتاب (صفحات مكثفة من تاريخ التصوف الاسلامي) يعرض المؤلف في كتابه هذا صفحات مما قيل عن التصوف الاسلامي يبسطه ويتحرى ما غمض فيه ليكون قريباً من الاذهان بغير مفاجأة ويعد هذا الكتاب عصارة الممارسة التدريسية الاكاديمية للمؤلف للدرس الصوفي ولحقائق التصوف صدرت طبعته الاولى سنة ١٩٩٧ عن دار المناهل للطباعة والنشر والتوزيع بيروت ويقع في ١٩٠ صفحة.

اما كتابه (البهلول بن عمرو الكوفي، رائد عقلاء المجانين) يعرض المؤلف في كتابه هذا انموذجاً مما حفل به تراثنا الغني العميق للجنون والزهد والشهرة حتى بلغ عصرنا من مسافة ثلاثة عشر قرناً

البهلول الذي يرقد في مقبرة الجنيد البغدادي، ظهر الكتاب في طبعته الاولى عن المكتبة العصرية بغداد ٢٠٠٤ ويقع في ١١٠ صفحة.

اما (ديوان السهروردي المقتول) يرى المؤلف في السهروردي الصوفي الفيلسوف الطبيب شاعراً متفرداً ومفكراً اديباً لايستغرب ان تصدر عنه عبارات من جوامع الكلم استصفيت من تأملاته في الاشراق وانصبت في بحر الروحانيات، قتل بسبب آرائه الجريئة في عصره صدرت طبعته الاولى عن مطبعة الرفاه في بغداد سنة ٢٠٠٥ ويقع الكتاب في ١٦٨ صفحة.

ومن مؤلفاته (اصداء وملامح عربية واسلامية) في رواية دون كيخوته (لثريا تنسي) تعد هذه الدراسة للمؤلف قراءة متعمقة مدققة لأثر ادبي عالمي ونص فني ترجم الى اكثر من ستين لغة صدرت هذه الدراسة ضمن سلسلة الموسوعة الصغيرة رقم (٤٧٠) عن دار الشؤون الثقافية بغداد ٢٠٠٢ وتقع في ١٧٤ صفحة.

هذا بالاضافة الى مشاركته في العديد من المؤتمرات الفكرية مثل مؤتمر الكندي في بغداد ١٩٦٣ ومؤتمر مركز الشرق الاوسط في الجامعات الاميركية في بوسطن ١٩٧٤ ومؤتمر الفارابي في بغداد ١٩٧٥ اضافة الى مؤتمرات اخرى.

اشرف على العديد من الرسائل الجامعية في كلية الاداب جامعة بغداد وكذلك جامعة السابع من ابريل الزاوية- ليبيا.

نال العديد من الجوائز والشهادات التقديرية منها جائزة جمعية اصدقاء الكتاب لعام ١٩٧٣ عن كتاب ديوان الدوبيت في الشعر العربي بيروت وشهادة تقديرية من وزارة التعليم العالي والبحث العلمي تثميناً للدور العلمي والتربوي وماترك من بصمات للاجيال في ١٨/١/٢٠٠٣.

شهادة تقديرية اخرى في المؤتمر القطري الثاني للفلسفة في عمادة كلية الاداب الجامعة المستنصرية ١٤/١/٢٠٠٣.

ونتساءل عبر لحظات الذاكرة والذكرى اهو صوفي دنيوي دنا من آفاق التجربة الذاتية الرحبة ام هو هارب من واقع المعاناة وقيود الزمكان ام هو رحال نحو لا متناهي الحق في الافاق والانفس وهكذا كان وسيظل استاذنا الراحل الدكتور الشيبي رائداً في سفر عراقنا الحضاري وستبقى مؤلفاته وبحوثه ودراساته تسطر سفره على الرغم من رحيله وتسطر من بعده سفر ابداعاته لاجيال الباحثين والدارسين والمتخصصين

عراقيون
من زمن التوهج
العدد (2039)
السنة الثامنة
الخميس (10)
شباط 2011

هكذا تكلم
د. كامل مصطفى الشيبي

أجرى الحوار: صالح مهدي ألهاشم

الأستاذ الدكتور الشيبي ، فيلسوف جاد ، ومفكر مبدع دقيق في طروحاته شديد الالتزام في نقله واقتباسه ، متصوف على طريقته الخاصة ، من أدق الذين كتبوا في التصوف ، ومن أعمق الذين حققوا الفكر الصوفي ، رسالته للماجستير في جامعة الإسكندرية ورسالته للدكتوراه في جامعة كمبردج كانتا في الفكر الصوفي ، شارك في عدد من المؤتمرات التي تعالج قضايا التصوف ، أستاذ التصوف والعقائد وعلم الكلام في جامعات القطر وعدد من الجامعات العربي ، دراساته عن الحلاج وتحليل معاناة هذا الصوفي وبيان أساليب دعوته ومصيره من أجمل ما كتب في هذا الباب ... حقق ديوان الصوفي أبي بكر ألشبلي ، وأخيرا صدر له عن دار المناهل بيروت عام ١٩٩٧ كتابه (صفحات مكثفة من تاريخ التصوف) .

الشيبي في كل كتبه وبحوثه ومقالاته ، دؤب ينقش في صخرة التصوف ... وهو من ابرز أعمدة مدرسة بغداد الفلسفية خلال العقود الثلاثة الأخيرة ... ولذا كان حوارنا معه عن الصوفية والتصوف منهجاً وعملاً ، فقد أعطينا القوس باريها : -

قناعات لها مسوغات

سألناه :- كتبت عن الصوفية والمتصوفة مبكراً وما زلت تكتب فما الذي اكتشفته جديداً عن هؤلاء الناس وطريقتهم ؟ هل صيروك صوفياً لا يبدو ذلك !!

أجاب :- في مخالطتي لآثار الصوفية والمتصوفة مبكراً والمتكلمين مخالطة ذهنية وروحية تعلمت منهم المثالية والتسامح ، وانتهيت إلى قناعة كاملة في الحياد الفكري ، إذ اكتشفت إن المفكرين ينتهون إلى قناعة فكرية ينطلقون منها إلى استكمال الآراء ، لسبب وجيه يدفعهم إلى ذلك ، ووجدت إن قناعاتهم لها مسوغاتها ، ومن هنا لم أجد ضرورة لتخطئتهم والوقوف ضدهم ، بل صادفتهم وعرضت آراءهم عرض جار وصديق حميم : فانا لا أتظاهر بمظاهر الصوفية في اللباس والتصرف ، وتمثيل الرقة مرة والشدة أخرى ، فان في داخلي أخلاقهم وفهمهم ، ومن ذلك قول الجنيد : التصوف خلق فمن زاد عليك في الخلق فقد زاد عليك في التصوف ... وهذا هو الجديد المتجدد ... ومن هذه الزاوية اكتشفت إن للحلاج جهوداً تفسيرية للقرآن متفرقة في المخطوطات فأخذت نفسي بالبحث عنها وجمعها لأقدم للناس توجهاً لم يعرفوه من قبل بعيداً عن التعصب والمواقف والرواسب المسبقة

الأنبياء صوفية

هل التصوف في الإسلام نتاج الزرادشتية أو البوذية أو غيرهما من فلسفات الشرق ؟ أم انه ولد من رحم المسيحية أو أفكار لاهوتية أخرى ؟ أم إنها إفرازات الطروحات الباطنية ؟ أم المتصوفة شريحة إسلامية استلهمت مفاهيمها وأصولها من القرآن الكريم ؟

يشهد التاريخ والبصر والبصيرة : بأن التصوف هو في الحقيقة توجه روحي مباشر إلى الخالق سبحانه ، بصرف النظر عن الانتماء الفقهي والتشريعي في التاريخ كله ، ولهذا فإننا نجد التصوف في كل زمان وكل مكان ، وكان الأنبياء في توجههم إليه تعالى صوفية يستمدون المعرفة والتوجيه والخلق منه ، ومن هنا يتشابه المتصوفة الهنود من بوذيين وهندوسيين والرهبان المسيحيون في شتى فرقهم وكذا الرهبان الكونفو شيوسيون والمجوس واليهود والهنود الحمر وكل متوجه روحي في العالم كله .

ولم يكن أجدادنا مستثنين من هذه القاعدة ، فقد كان الحنفاء صوفية بوجه من الوجوه ، وكان بنوصوفة الجاهليون المنقطعون لخدمة الكعبة وقيادة الحجاج إلى جبل عرفات والنزول منه في ختام الحج ، صوفية بوجه من الوجوه ، ومنهم اتخذ التصوف مصطلحه . وكيف نفسر تحنث عظيمنا الأكبر محمد بن عبد الله في جبل حراء طوال خمسة عشر عاماً إلا على هذا النسق العام في التوجه المباشر إليه سبحانه واستمداده القوة والطاقة والروح منه ، وفي رأينا إن التصوف هو لب الأديان ومنطلقها ومنه تفرعت واستبانت موضوعاته من تشريع وأخلاق ومناهج وما إلى ذلك مما عرفناه في شتى التوجهات الإنسانية الدينية . فالتصوف قد وجد قبل الأديان ومنها الإسلام ، وسيبقى بعدها باشكال جديدة إلى نهاية العالم .

الكفر وناقله

أين نضع فلسفة وحدة الوجود من فكرة وحدة الأديان والمذاهب في الفكر الصوفي ، وكيف نفسر قول ابن عربي :أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه فالحب ديني وأيماني ؟

قال تعالى : (هو الأول والأخر والظاهر والباطن وهو بكل شي عليم) " الحديد آية ٣ " ، وقال تعالى : (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) " الذاريات آية ٥٦ " ، وقال : (كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين) " الأنبياء آية ١٠٤ " من هنا يستنتج أصحاب وحدة الوجود : إن الله والعالم شيء واحد وكائن واحد ، وانه تعالى لم يكن في وقت من الأوقات وحده ، بل العالم يتجدد خلقه في كل لحظة ، ويبقى سره وروحه فيه منذ الأزل والى الأبد ، ويرون إن العالم تفرق من الله يوم حدث انقسامه إلى كتلة عليا هي السماء وكتلة سفلى هي الأرض ، على شكل تعبير رمزي يعني الانفجار العظيم الذي خرج منه ثلاثة وأربعون فلكاً وكوكباً ، يحيط بها الله ويسيرها ويضبط حركاتها ، وان كل هذه الموجودات تحيا وتموت بأمر الله الذي يبقى فيها ويثبت ، لأنه هو القائل : (كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) " الرحمن آية ٢٧ " وقوله تعالى : (أو لم ير الذين

في داخلي أخلاق الصوفية وفهمهم !!

التصوف موجود قبل الأديان !!

المظاهر الخارجية للتصوف فارغة وكبارهم يرفضونها !!

عراقيون
من زمن التوهج
العدد (2039)
السنة الثامنة
الخميس (10)
شباط 2011

كفروا إن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون) " الأنبياء آية ٣٠ " أي إن العالم الكبير يشبه شجرة عظيمة وارفة ، تخضر اوراقها وتنمو ثمارها ثم تسقطان ، والشجرة ثابتة لا تتزحزح ولا تموت ، وهذا على كل حال رأي الابيقوريين وأتباع أفلوطين الذي تبناه فيلسوفنا ابن رشد في القرن السادس الهجري وتلقاه منه ابن عربي الفيلسوف الأندلسي ، ثم دان به كثير من مفكري المسلمين من نحو

ابن سبعين وعبد الغني النابلسي ، ثم الأمير عبد القادر الجزائري وشاعرنا معروف الرصافي وكثير من مشاهير المسلمين خصوصاً من الصوفية ، طبعاً فكرة وحدة الوجود خلافية منذ نشأتها وتطورها ... وناقل الكفر ليس بكافر ، وخلاصة الفكرة إن هذا العالم الملموس المحسوس لم يكن في يوم من الأيام عدماً بل كان مادياً ولكن مادته تتشكل باشكال مختلفة بأمر الخالق سبحانه ...وأما قول ابن عربي :

أدين بدين الحب أنى توجهت
ركائبه فالحب ديني وأيماني

فهو جزء من مقطوعة شعرية له تقول :
لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي إذا لم
يكن ديني إلى دينه دان دان
فقد صار قلبي قابلاً كل صورة
فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف
وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت
ركائبه فالحب ديني وأيماني

وهذه الأبيات تنظر إلى قول الحلاج في وحدة التوجه إلى الله من شتى الزوايا :
تفكرت في الأديان جد محقق
فألفيتها أصلا له شعب جما
فلا تطلبن للمرء دينا فأنه
يصد عن الأصل الوثيق وإنما
يطالبه أصل يعبر عنده
جميع المعالي والمعاني فيفهما

أي إن الأصل في التدين التوجه إلى الله بالنية الصادقة والإخلاص الحقيقي ولا عبرة بالشكل والقالب والتفصيلات .

مظاهر فارغة

عند الكلام عن الصوفية يتبادر إلى الذهن ، الخرقة ، السبح الطوال الملفوفة حول الرقبة ، اللباس الرث ، ذلك الوعاء الغريب الذي يحمله الذين يسيرون في الشوارع ويكثرون من الصلاة على النبي يسميهم الناس (الدراويش) ما هي العلاقة بين هذه الطقوس وفعاليات الصوفية ؟ وبما تلخص مفاهيم الصوفية ؟

أبتسم الدكتور الشيبي قبل أن يجيب : الأصل في المظهر الخارجي للتصوف : الزهد الشديد في المطعم والمشرب والملبس والمسكن ، وقد ترجمت هذه العناصر إلى الزهد في هذه المظاهر وإلباسها لوازمها المادية من صوف مخرقة ومرقعة وما إلى ذلك ، وقد بدأت هذه التقاليد في عنفوان الحركة الصوفية ، ولكنها تدهورت مع تدهور الفكر الصوفي إلى الأشكال التي تشاهد في المجتمع اليوم ، فالمسؤول الظروف لا الفكر الصوفي ، ومع ذلك فثمة مفكرون صوفيون كبار في العالم الإسلامي اليوم لا يأبهون لهذه المظاهر الفارغة ومنهم من صار شيخاً للأزهر الشريف كالشيخ عبد الحليم محمود وغيره ...

نشر في جريدة الزوراء

الادب الشعبي..
وجه من وجوه التراث الشعبي

كامل مصطفى الشيبي

أن الرجز كان، فوق مصاحبته للإنسان العربي في خصوصيات حياته، في بيته وعمله وسفره، إطاراً للحماسة الحربية والفخر بالنفس أثناء القتال بخاصة – والأمثلة على هذه الظاهرة مما لا داعي إلى إنفاق الوقت والحيز فيه.

وإذا استقر بنا هذا الوضع، ساغ لنا أن نجعل الرجز منطلقاً للقول:

إن للأدب الشعبي فنوناً تختص به وتتضمن معانيه التي تتدفق بها شجون الحياة، وينبض بها نبضها الذي يعد الدقائق والثواني والأيام، ثم عد السنين والأجيال والقرون.

ومن هذه الفنون ما يصور الصلة الإنسانية بين الأم والطفل، وهي صلة، قد لا تعد من المواقف المهيبة الرهيبة ولا يوصف موضوعها بالجلالة والسمو، لكنها، بإنسانيتها وطبيعتها، تعد بالمقياس الحاضر نفسه تجارب شعرية حقيقية لصدورها عن التجربة والإحساس لا عن الثقافة والتعلم والإنشاء.

من هنا فإن ترقيص الأطفال، الذي يعبر عن هذه الصلة ويصورها شعراً، إنما هو أدب شعبي أصيل يصدر من شغاف الأم وهي ترى ثمرة أحشائها بين يديها تخاطبها وتتمنى لها الأمنيات وتفخر بها وتدللها وترقصها حتى تطيب نومتها ولا عجب أن يكون الرجز هو الإيقاع الذي انصبت فيه هذه الأشعار، أو فلنسمها الأغاني المرقصة، فهو الوزن الأقدم للتعبير الشعري الذي يصلح للصلة القدمى بين الأم ووليدها، وهو إيقاع أو وزن يحفل بالحركة والنشاط والسرعة والحماسة.

ومن الأغراض التي تناولها الأدب الشعبي القديم، ما رأينا من النصوص التي يرددها الكهان، وكذا قصص الأبطال ووقائع الحروب وأحاديث السمار التي يراد بها (الخرافات الموضوعة من حديث الليل، أجروه على كل ما يكذبون من الأحاديث وعلى ما يستملح ويتعجب منه)، وأطلقوا عليها اسم أحاديث خرافة.

ومن الموضوعات التي طرقها الأدب الشعبي قصص المحبين العذريين الذين ماتوا حباً، ومنهم، المرقش الأكبر (عوف، أو عمرو، بن سعد البكري، ت نحو ٧٥ ق.هـ / ٥٥٠م)، وعمرو بن عجلان النهدي (ت ٤٦ ق.هـ / ٥٦٦م). وتوبة بن الحمير العذري (ت ٣٠هـ / ٦٥٠)، وقيس بن ذريح الليثي (ت ٦٨هـ / ٦٨٨م).

ومنهم المغناطيس الأكبر لجذب الأساطير والأشعار وتجميعها، وخزانة المبالغة في العذاب، ونعني به قيس بن الملوح العامري (ت نحو ٧٠ هـ / ٦٩٠م) وصاحبته ليلى اللذين عبرت أسطورتهما حدود الجنس العربي إلى الآداب الشرقية وحظيت بأكبر قالب جديد يسابق به الخيال ويضع لها تفصيلات تجوز المقدار لتثير العطف والعواطف، وتجري بالدموع كالسيول على مثال العشق وإمام العاشقين قيس بن الملوح العلوي (١٤).

ومن الموضوعات التي تدخل ضمن مصداق الأدب الشعبي القديم تلبيات مواكب الحجاج إلى مكة والمعابد الأخرى قبل الإسلام، فلقد كانت، كمواكب الاحتفال باستشهاد الحسين في العراق، ومواكب الصوفية في مناسباتها في مصر وغيرها، تعكس أدباً شعبياً فطرياً بسيطاً صافياً يعبر عن إيمان ساذج في إطار من السجع البسيط الذي يقترن بأشعار قصيرة من الرجز، على العادة يومئذ

عراقيون
من زمن التوهج
العدد (2039)
السنة الثامنة
الخميس (10)
شباط 2011

الشيخ عبدالقادر الجيلاني

إلمامه بشخصيته وفكره التربوي

كامل مصطفى الشيبي

[الكلمة التي ألقاها الدكتور كامل مصطفى الشيبي في ملتقى الفكر الاسلامي الحادي والعشرين في قرية بوحنيفية التابعة لولاية معسكر غربي الجزائر، اجمالاً لمحتوى بحثه الموسوم (الشيخ عبدالقادر الجيلاني: شخصيته وفكره التربوي) في ظهر يوم السبت الخامس من المحرم ١٤٠٨ هجرية / الرابع من أيلول ١٩٨٧ ميلادية].

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها السادة، الفقير الماثل أمامكم لم يخيَّر بين شيئين الا اختار اصعبهما لجبلة فيه، وذلك تقدير العزيز الحكيم. ولما خيرتني اللجنة المشرفة على هذا الملتقى العزيز، الذي يستحق منا كل تقدير وتأييد وتشجيع، بين موضوع مألوف عندي قد مارست تدريسه نحو ربع قرن من الزمان، وموضوع اخر لم يخض فيه الباحثون، حسب تقديري – وهو الحاضر – ساقتني الجبلة الى اختياره ومنازلته وبذل أقصى الجهد في تفهمه وتعلمه قبل ابلاغه الى النشئ، أملاً في تعليمهم شيئاً مفيداً ولفت انظارهم الى ضرورة المساهمة في بحثه واضافة الجديد المفيد اليه لتعم فائدته ويجري تيار العلم المتدفق الصافي من الاكدار.

والحق ان البحث في تفصيلات الشؤون المتصلة بهذه الشخصية الراسخة المكانة في قلوب الناس، من ذوي التوجه الروحي في مشارق العالم الإسلامي ومغاربه منذ أواسط القرن السادس الهجري والى ما شاء الله، من أكثر الموضوعات أهمية وادعاها الى مجهود الباحثين في التصوف الإسلامي والنزعات الروحية على العموم لقلة ما يعرف عن هذه الشخصية من تفصيلات واقعية، وضرورة نفض الغبار عنها وجلاء صورتها ليكون لها دورها المتجدد في مجتمعنا المعاصر الذي يتطلب فيه الناس على كل قول برهاناً وعلى كل رأي مرجعاً موثوقاً به.

بهذا يستمر الدور الإصلاحي لمثل هذه الشخصيات التي كان لها اثرها البالغ في الماضي فينقاد الناس بهديهم الى عالم المثال والتجرد والايثار بعد ان طغى دوي الآلات وسحر الفنون العصرية على صلصلة أجراس عالم الروح وحفيف أجنحة الملائكة، وأثر في الابصار والبصائر والأحاسيس والأذهان تأثيراً بات يخشى منه على القواعد والأسس والمسلمات والمباديء ان تذورها لرياح هذا الزمن، وان ينصرف عنها منْ كان يؤلفها ويستمدها في القرون الماضيات.

والصعوبة العظمى التي تواجه الباحث في سيرة القطب الجيلاني وفكره ان ابناءه الكثيرين، الذين نعرف منهم أحد عشر رجلاً، واتباع ومريدي والمعجبين به، طوال تسعة قرون على امتداد العالم الأسلامي كله، قد أسهموا جميعاً في اضافة (رتوش) ثقيلة الى صورته الحقيقة حتى طمسوا معالمها الواقعية وأورثونا شخصية أسطورية هي الى الخيال أقرب، كما فعل ولاة الشيعة مع علي بن أبي طالب والأئمة من أبنائه.

وضرباً للأمثلة، فيما يتصل بشيخنا الجيلاني، ذكر هؤلاء النفر أنه – لما كان حَمْلاً «تجلى [الله عز وجل] عليه – وهو في بطن أمه – مئة مرة، فسمته الملائكة عبدالقادر فسمعت به الرجال وسمته به، وشاع بين الخلائق» [كما في بهجة الأسرار للشنطوفي ص٨٩]، وأنه – لما وضعته أمه «كان لا يرضع في نهار رمضان» [أيضاً، ص٨٩] فصام الناس لصومه إذ كان قد غُمَّ عليهم هلال رمضان سنتئذ. وأنه – لما دخل بغداد في شبابه لطلب العلم وزيارة الصالحين، كان يزور قبر معروف الكرخي الصوفي الزاهد الرائد (ت٢٠٠هـ-٨١٥م) وكان الأخير يرد عليه السلام من قبره [!] ويقول له: «وعليك السلام، يا سيد أهل زمانه» [أيضاً، ص٢٣]، وأنه «كان اذا أعيى الأطباء دواء مريض، أتي به فيدعو له ويمر يده عليه فيقوم بين يديه» [أيضاً، ص٧٨]. ولما بلغ الشيخ القطب مرتبته القصوى، وجعل يعقد مجالس وعظة حلقات درسه، ذكر المعجبون به من أولاده ومريديه أنهم شهدوا الأنبياء والملائكة ورجال الغيب يحضرون مجلسه» [أيضاً ص٩٤]، وأن الخضر – عليه السلام – كان «يكثر من حضوره» [أيضاً ص٩٤].

وترقى بهم الغلو فيه الى حد ان رجلاً من اتباعه قال له يوماً: «يا سيدي، رأيت في النوم رب العزة – سبحانه وتعالى – وقد فتحت ابواب الجنة، وقد نوصب لك الكرسي وقيل لك: تكلم...» [أيضاً، ص٩٥] غير ملتفت الى ان مجلس الوعظ لا يعقد في الجنان ولا في النيران لأنهما داري جزاء لا داري تكليف، وقد جف القلم بما كان. ولنختتم هذا التتابع، من الغلو في القطب الجيلاني – بما روى عنه محمد بن طاهر المقدسي:

«حضرتُ مجلس عبدالقادر سنة ٥٥٧ هجرية [= ١١٥٤ ميلادي، أي قبل وفاته بأربع سنين] فسمعته يقول: «أنما كلامي على رجال يحضرون مجلسي من وراء جبل قاف [في اقصى العالم]، أقدامهم في الهواء وقلوبهم في حضرة القدس، تكاد قلانسهم وطواقيهم تحترق من شدة شوقهم الى ربهم – عز وجل». وزاد «وكان أبنه عبدالرزاق، إذ ذاك جالساً على المنبر تحت رجل أبيه، فرفع رأسه الى الهواء: فشخص ساعة ثم غشيَّ عليه واحترقت طاقيته وزيقه، فنزل الشيخ وطفأها [= أطفأها]، وقال: وأنت، يا عبدالرزاق، منهم»!.

قال المقدسي، الرواي: «فسألت عبدالرزاق عما أغشاه، فقال: لمّا نظرت الى الهواء رأيت رجالاً واقفين مُطرقين منصتين لكلامه، وقد ملأوا الأفق – وفي ثيابهم ولباسهم النار– ومنهم من يرعد في مكانه». وهكذا صار من اللوازم، عن هذه المبالغات ان يقال: «وكان يسمع عند كلامه في الفضاء صياح وجلبة ساقطة من العلو الى السفل» [أيضاً ص٩٤]، وغفر الله للشطنوفي (المتوفى سنة ٧١٣ هجرية / ١٣١٣ ميلادية) الذي جمع هذه الأساطير ونسقها في كتابه الشهير بهجة الأسرار، ونقل عنه من نقل من الغالين في هذا الشيخ الصالح القدوة. والحقيقة ان ما ذكرنا من هذا التتابع من الكرامات أو الخوارق أو الغلو أو الأساطير لا يشكل عشر معشار مما نسب الى الشيخ من عجائب ظفرتها له أنامل الأعجاب والمحبة والمهابة، واحياناً مخالب الأسترزاق وخطب ود العامة والسذج واستغلالهم كالحال مع غيره من العظماء الروحانيين والجسدانيين في شتى الملل والنحل والأزمان والأوطان.

من هنا كان علينا ان نستخلص من هذا الركام المتشابك خيوط الحقيقة أو قل: خامات منطقية يمكن ان يتأسس عليها بناء مقبول معقول محكم. وقد توسلنا الى هذه الغاية عملاً بالمنهج الذي وصانا به شيخنا الأوروبي ديكارت من اتباع القواعد الذهبية الأربعة التالية: أولاً: ألا لا أسلم لشيء ألا ان اعلم أنه حق، وثانياً: أن أقسم كل مشكلة تصادفني ما وسعني التقسيم وما لزم لحالها على خير وجه، وثالثاً: أن أسير بأفكاري بنظام، ورابعاً: أن أقوم في كل مسألة بإحصاء أتحقق معه أني لم اغفل شيئاً، كما علمنا أستاذنا الكبير المرحوم يوسف كرم في كتابه: تاريخ الفلسفة الحديثة [ط دار المعارف بمصر ١٩٥٧، ص٦١-٦٢].

واتضح لنا، بعد طول المعاناة والمعاياة، ما ضمناه الذي بين ايديكم ونلخصه الآن ليطلع عليه الحاضرون على قاعدة «ما قل ودل». ويبقى لأخواننا الباحثين توجيهنا وتسديد خطانا مشكورين، واضعين بيننا بحثنا المفصل، الذي نعترف بأنه غير مستكمل لقصر المدة، وتحري الافادة على قدر الامكان.

ونبدأ على اسم الله فنقول: ولد الشيخ القطب أبو محمد عبدالقادر بن أبي صالح عبدالله بن موسى جنكا دوست في قرية بشتير كما ذكر ياقوت الحموي في معجم البلدان والفيروز ابادي في القاموس المحيط والزبيدي في تاج العروس، وهي قرية ما تزال قائمة في ايران الحالية وتقع في منطقة جيلان(١) التي تمتد في الجنوب الغربي من بحر الخزر، وذلك سنة ٤٧١ هجرية / ١٠٧٨ ميلادية في أسرة ميسورة في ما يبدو: وكان أخ أصغر منه أخترم صغيراً، واسمه أبو أحمد عبدالله [ولعله أبو عبدالله أحمد لأسباب ليس هذا محلها]. وفقد شيخنا أباه صغيراً فكلفه جده بأمه أبو عبدالله الصومعي، نسبة الى قرية صومعة سرا التي ما زالت قائمة اليوم في القرب من بشتير المذكورة. وقد كان من شدة ارتباط الحفيد بجده وعطف هذا عليه ان شيخنا لصق به لأول سني مجاهدته وتعلمه فعرف به وضعفت رابطة النسب التي بينه وبين ابيه فعرف بسبط ابي عبدالله الصومعي.

وتلقى شابنا اليتيم، الذي غدا عظيماً ككثير من العظماء الأيتام، المعرفة المتيسرة من شيوخ المنطقة، ثم طمحت نفسه الى الاستزادة منها والانخراط في الرياضة الروحية بقصد بغداد مركز الحضارة والمعارف الإسلامية لأيامه، فتم له ذلك في الثامنة عشرة من عمره، وودع قريته الصغيرة الى غير رجعة، مشيعاً برضا

عراقيون
من زمن التوهج
العدد (2039)
السنة الثامنة
الخميس (10)
شباط 2011

والدته الكريمة وتشجيعها ونفقتها المتصلة.

وفي بغداد تفقه شيخنا في المذهبين: الحنبلي، الذي اختاره وتدين به، والشافعي الذي مهر فيه، ويبدو أنه نشأ عليه وراثة في صغره، ودرس المعارف الإسلامية مستفتحاً بالعربية تقويماً للسانه الأعجمي الذي كان كثير الشكوى منه والإلحاح عليه، ولم يتح له ذلك في قريته وبيئته. وقد تم له ذلك برعاية رجل عظيم هو أبو زكريا التبريزي (ت ٥٠٢ هجرية / ١١٠٩ ميلادية) صاحب: شرح القصائد العشر، والوافي في العروض والقوافي وغيرهما – وكان تلميذاً لأبي العلاء المعري.

ودرس الشيخ عبدالقادر القرآن وتفسيره على رجاله حتى أتقنهما، ثم تفقه في مذهب الامام أحمد بن حنبل (ت ٢٤١ هجرية) على أبي الوفاء بن عقيل البغدادي (ت ٥١٣ هجرية / ١١١٩ ميلادية) مصنف أضخم موسوعة إسلامية على الاطلاق تتمثل في كتابه الكبير «الفنون» الذي قيل: إنه عدّ ثمانمائة مجلد لخصها أبو الفرج عبدالرحمن بن الجوزي (ت ٥٩٧ هجرية / ١٢٠١ ميلادية) بجلالة قدره، في أحد عشر مجلداً. وتعلم الشيخ عبدالقادر من ابن عقيل سعة الاطلاع ورحابة الافق وحلاوة التسامح والتعلق بالاجتهاد والعطف على الصوفية وحبهم والثقة بهم وتأثير خطاهم وتأويل المأخذ عليهم وخصوصاً الحسين بن منصور الحلاج شهيد الصوفية.

وكان أبو سعيد المخرمي [نسبة الى حي المخرم في بغداد القديمة، لا المخزومي كما يرد في كثير من المصنفات القديمة والحديثة] (ت ٥١٣ هجرية / ١١١٩ ميلادية) ثالث الاساتذة العظام الذين حظي الشيخ عبدالقادر الجيلاني بالتلقي عنهم. والمخزمي هو الذي ورث شيخنا مدرسته الصغيرة التي صارت، بعد، مدرسة واسعة ومسكناً لعبدالقادر الجيلي ومقبرة له يزورها الناس ويتبركون بها من شتى أصقاع العالم. وقد أخذ شيخنا عن المخزمي الفقه واصوله ومال الى التصوف بتشجيع منه وتعليم وتسليك وان كانت منزلته في التصوف أقل وأدنى بكثير عنها في الفقه والأصول. وما وقع ان الشيخ عبدالقادر أخذ عن استاذه المخزمي التصوف، في ما أخذ عنه، ضمن سلسلة من المشايخ الفقهاء لا تلبث ان تتصل بأبي بكر الشبلي فالجنيد البغدادي فالسريّ السقطي فمعروف الكرخي فحبيب العجمي فداود الطائي فالحسن البصري فعلي بن ابي طالب كالمعتاد في خرقة التصوف، من الجنيد البغدادي فنازلاً، حتى اليوم.

لكن التصوف الحقيقي والمجاهدة التطبيقية وكسر النفس ورياضتها ومعاناة المقامات والاحوال لم تتأد الى الشيخ عبدالقادر ألا من ولي مشهور أمي ذي فراسة ونفوذ هو الشيخ حماد الدباس (ت ٥٢٥ هجرية / ١١٣١ ميلادية) الذي كان له معمل دبس [وهو رُبّ التمر] فعلاً وكان يطلق عليه يومئذ مصطلح «كاركه الدبس من كار = عمل وكاه = مكان». وقد كان شرط حماد الدباس مع مريديه من الفقهاء والمثقفين ان ينسوا علومهم النظرية وما استقر في عقولهم واذهانهم من متلقيات ليسوغ له صبهم في قالب روحي حقيقي يقوم على الألهام والأستمداد من عالم الروح بالرياضيات الروحية والبدنية. وهكذا أفرغ حماد الدباس ذهن شيخنا مؤقتاً من كل علم مقروء ومكتوب ومحفوظ ومرنه على المعرفة الروحانية والمكاشفة وعلوم الباطن. ومن حماد الدباس بالذات تعلم عبد القادر إبراء المحمومين بالإيحاء النفسي، الذي لا ينكره المحدثون، إذ كان حماد «يعطي كل منْ تصيبه حمة لوزة وزبيبة فيأكلها فيبرأ». وفوق هذا عانى الشيخ عبدالقادر الشدائد وتحمل الاهوال على يد استاذه الدباس، الذي اراد ان يصور روحه صهراً فينفي عنها كل ما علق بها من شوائب، وكان فعله هذا على نحو ما فعله الجنيد البغدادي من شدته على أبي بكر الشبلي الذي جعل – وهو الارستقراطي المنعم – يتسول الناس ثلاث سنين كسراً للنفس واقتناعاً بالتصوف عملاً بعد النظر. وصحب عبدالقادر شيخه الدباس سنين فتمخضت هذه الصحبة عن صوفي أستحق أن يسمع من شيخه هذه الجملة القصيرة المعبّرة التي لا تقدّر بثمن: وهو قوله: «يا عبدالقادر تكلم على الناس». فلما قال له شيخنا: «يا سيدي، أنا أعجمي قح؛ فكيف أتكلم على فصحاء بغداد؟» عاد استاذه يقول في لهجة آمرة قاطعة: « أنت قد حفظت الفقه واصوله والخلاف والنحو واللغة وتفسير القرآن ويصلح أن تتكلم على الناس؛ فإني أرى فيك عنقاً سيصير نخلة». وهكذا أطلق له العلم النظري وتركه يمتزج مع المحصول الإلهامي والحقائق التأملية. وكان هذا قولاً فصلاً أنتهت به مرحلة الطلب والتكميل لتبدأ مرحلة المشيخة والارشاد والوعظ والتدريس، وحدثت هذه الواقعة في شوال سنة ٥٢١ هجرية / ١١٢٧ ميلادية وللشيخ اثنتان وخمسون سنة؛ أي أن تكميله استغرق ثلاثاً وثلاثين سنة بالتمام والكمال، فانظروا أي رجل كان وأي صبر صبر، وأي جهد بذل؟!.

ولابد من ايضاح هنا؛ ذلك ان الوعظ كان أسمى منزلة يمكن ان يرتفع إليها إنسان عالم في العراق في القرن السادس الهجري على الخصوص، إذ كانت مجالس الوعظ مدارس حقيقية للتهذيب والتربية والتعليم والتوجيه يقدم فيها الوعظ ما عنده من علم ومعرفة وخبرة ورأي وفتوى الى الجمهور الذي كان يعد هذه المجالس متنفساً له مما يعانيه من الفساد والظلم والجهل والقلق والملل خصوصاً وأن العامة، وهم سواد الشعب، كانوا في بحث دائب عن زعيم مخلص، كأبن حنبل مثلاً، يصفي عقولهم ويطهر نفوسهم ويجيب على كثير من الاسئلة التي تعرض لهم في عالم يتغير من يوم الى آخر وتتغير معه المفاهيم والمسلّمات تحت حد السيوف التي يشرعها المتغلبون والانقلابيون ومراض النفوس المتصيدون في الماء العكر المستغلون ضعف الخلافة ايام البويهيين من قبله وايام السلاجقة الذين عاصرهم عبدالقادر من بعد تغلبهم حتى تم الخلاص منهم ما بين سنة ٤٤٧ الى سنة ٥٤٧ هجرية [= ١٠٨٤-١١٥٢ ميلادية].

والحق ان الوعظ كان يومئذ فناً من الفنون الأدبية أو نوعاً منه كما يقال هذه الأيام، إذ كان لكل واعظ اسلوبه وطابعه ونظامه الذي يتبعه في مجلسه. وقد تطور هذا من بُكوره، أيام الخلفاء الراشدين، ثم أيام وعاظ الأمصار وخصوصاً البصرة التي أنجبت الحسن البصري وعبدالواحد بن زيد حتى نضج اخيراً في بغداد التي برز فيها أبن سمعون الواعظ في القرن الرابع الهجري. مهما يكن الامر فقد بلغ الوعظ أوجه في القرن السادس الهجري: وقص علينا ابن جبير الرحالة الاندلسي عجائب من رفعة هذا الفن لدى نزوله بغداد في الربع الأخير منه. والحق ان ابن الجوزي كان امام الواعظين، إذ كان يقوم بعملية شبه مسرحية يؤديها ثمانية قراء للقرآن يتلو كل منهم آية واحدة، وبعد فراغهم جميعاً يتسلم أبن الجوزي المجلس فينشيء موعظة مسجوعة على أواخر حروف الآيات التي تلاها القراء ثم يختم بحرف واحد يكون السجعة الدائرة العامة التي تحتوي التتابع المثمن، وقد ضربت الأمثال على ذلك في هذا البحث.

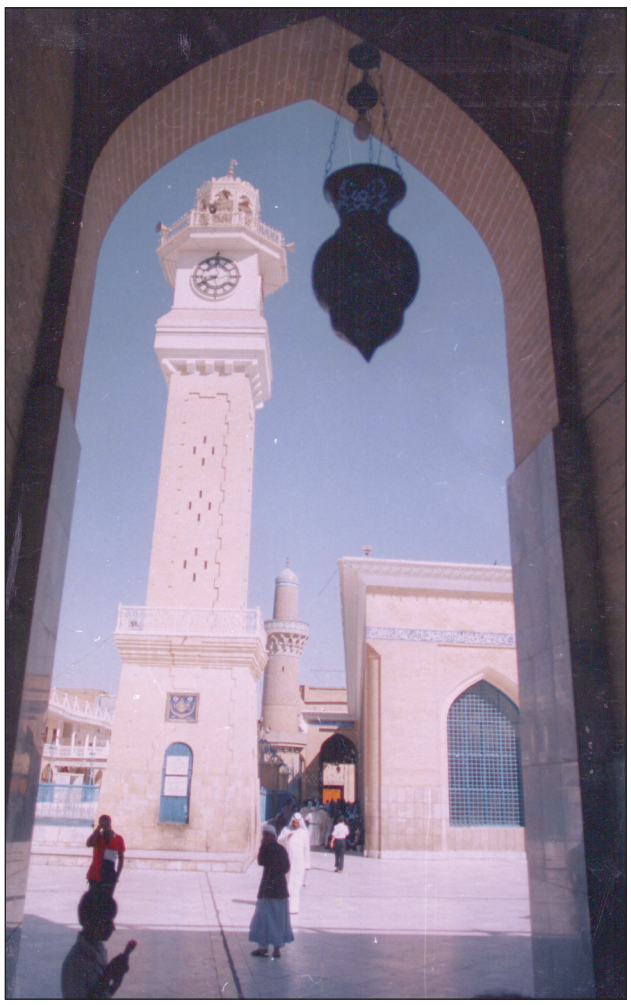

أما عبدالقادر الجيلاني فقد كان يجلس على منبره وعلى كل درجة منه رجلان من ابنائه ومريديه واتباعه وعلى الأرض قارئان يتلوان القرآن، وقد يمهد ابنائه بما يعن لهم، كما كان أبنه عبدالوهاب يفعل، دون ان يكون لذلك وقع حقيقي على الناس. فاذا بدأ شيخنا كلامه فكأنه شاعرٌ فحل يهز المشاعر أو أمير يدفع جنوده الى حومة الوغى فلا تمر جملة من كلامه الا مقرونة بصيحة اعجاب أو شهقة مرعوب أو تقطيع شعور أو تمزيق ثياب تعبيراً عن التزهد والتعبد والتوبة والأنابة والأنقياد الى ارادة الشيخ، دون حاجة منه الى الأسجاع أو الطقوس التي كان يتبعها غيره. وكان يخالط كل ذلك أسئلة وأستفسارات واستفتاءات لا يلبث الشيخ ان يجيب عليها عفو الخاطر. وكان اعجاب الناس بمجالس الشيخ بالغاً الحد بحيث رأى من الواجب ان يعقدها ثلاث مرات في الأسبوع في أمسيات الأحد والثلاثاء وصباح يوم الجمعة.

وفي سنة ٥٢٨ هجرية / ١١٣٤ ميلادية مست الحاجة الى بناء متسع يكون مدرسة؛ فما كان من الناس ألا أن سارعوا الى هذا الخير بأموالهم وطاقاتهم فأضافوا الى مدرسة أبي سعد المخزمي مساحات اخرى جعلت منها بيتاً للشيخ ومدرسة يلقي فيها دروسه ومواعظه. وهكذا قام هذا الصوفي الواعظ الكبير بوظيفته الأجتماعية المهمة من تخريج الفقهاء والأصوليين وتسليك الصوفية فوق وعظه للناس، وكان كلامه على الناس، عنده، واجباً واجب الطاعة إذ كان يعده استجابة لأمر إلهي لا محيد عن طاعته ولا شيء يعلو عليه. وظل شيخنا يعظ ويدرس الى اخر حياته التي آذنت شمسها بالمغيب سنة ٥٦١ هجرية / ١١٦٦ ميلادية.

ويهمنا هنا ان نشير الى ان الشيخ كان يخاطب حضار مجلسه بعبارات: يا غلام، ويا مسكين، ويا قوم، ويا شباب، ويا عباد الله، ويقدم لفقرات وعظه بعبارات ويحك، وويلك، وغيرها.

ويتبين من استعراض مضامين هذه المجالس انها كانت تدور حول الموضوعات التي كانت تشغل الرأي العام المسلم يومئذ، أو التي كان ينبغي الكلام عليها، تقوية لأيمان الناس ورصاً لصفوفهم. وبالمراجعة نلاحظ منها مجالس تمضي على الزهد وأخرى على عدم تمني الغنى، والرضا بقضاء الله، والمحبة في الله، والتفرغ من هموم الدنيا؛ وكل هذه موضوعات تجند الناس للجهاد والجلاء ومقاومة العسف والظلم والاستبداد والتطلع الى الحرية.

ووجدنا في مجالس الشيخ توجهات الى موضوعات تتصل بعدم الشكوى الى الخلق، وعدم التواضع لغني، وايثار المؤمن وغيرها وهي موضوعات تعلم الأنسان التمسك بالكرامة والاعتماد على النفس وملئها بالثقة والقوة.

ووجدنا للشيخ مجالس في الأخلاق الأنسانية وبناء الشخصية تدور حول: الصبر، وعدم المراءاة، والنهي عن النفاق، وعدم مشاركة الله في تدبير، واخلاص العمل لله، وعدم المداهنة، والغضب المحمود والمذموم، وجهاد النفس والهوى والشيطان.

ووجدنا فيها ألماماً بموضوعات تتصل بتقوية العقيدة الدينية التي كانت مدار الأخذ الرد بين الناس في ظل السلاجقة ومنها: مجالس في معرفة الله عز وجل، والعمل بالقرآن، والأعتراف بنعم الله، ورؤية الله يوم القيامة، والتوحيد؛ وهو أطول المجالس على الأطلاق.

وتضمنت مجالس الشيخ توجهات انسانية تتمثل في: حث الناس على ترك التعصب في المذهب، عملاً على الوحدة الدينية التي كانت مفككة الأوصال يومئذ.

وكانت للشيخ ألتفاتات جميلة في النفوذ الى اعماق النفس الأنسانية واقتراح المنهج الذي ينبغي ان يتبع لرفع مستواها والسمو بقوتها الروحية. من هنا كان يريد الانسان ان يكون قوياً وذلك باتباعه العزائم لا الرخص؛ وكان يقول: «يا غلام، عليك بالصف الأول لأنه صف الشجعان وفارق الصف الأخير فأنه صف الأجبان [= الجبناء]. استخدم هذه النفس وعودها العزيمة فأنها ما حملتها تتحمل. لا ترفع العصا [عنها] فأنها تنام وتلقي الأحمال عنها». لكنه لم يرد لهذه العزيمة أن تأتي بغتة بغير مراعاة للطاقة الأنسانية وقدراتها، فقال في ذلك: «أجهد في حفظ سرك مهما قدرت على الحفظ؛ فاذا جاءتك الغلبة فأنت معذور. أجتهد ان لا تكون أنت بل يكون هو [= الحق تعالى]... كن معه كالميت مع الغاسل... في الجملة أثبت بين يديه على قدمي ايمانك ونفسك وقت نزول أقضيته واقداره» ومن المخاطب غير الحلاج هنا، الحلاج الذي دافع عنه الشيخ أحر دفاع كما فعل الغزالي واستاذه أبن عقيل من قبل وعشرات غيرهم من بعد. وقد قال الشيخ في الحلاج: «عثر أخي الحلاج فلم يكن في زمانه منْ يأخذ بيده؛ ولو كنت في زمانه لأخذت بيده».

وأستمعوا الى قول عبدالقادر الجيلي الصوفي الزاهد وهو يقول: «لا ينبغي لك ان تقعد في الصومعة وعلى وجه الأرض أحد تخافه وترجوه، لا يبق لك سوى مخوف واحد ومرجو واحد وهو الله عز وجل» وقال – وما أجمل ما قال – «لا تنعزل في صومعتك مع الجها؛ فأن الاعتزال مع الجهل فساد كبير كلي، ولهذا قال النبي (ص): تفقه ثم أعتزل». ومن أجمل ما حث عليه الشيخ العمل وكسب الرزق، ولو كان الأنسان زاهداً أو صوفياً، طعمة لأهله ولولده.

وقد بين شيخنا واجب الواعظ ودوره واسلوبه الذي يحسن ان تبعه في ادائه عمله الديني الاجتماعي الاخلاقي فقال – يخاطب الواعظين انفسهم: ويحك، تقعد في هذا المقام تعظ الناس ثم تضحك بينهم، وتروي لهم حكايات مضحكة؟ لا جرم لا تفلح ولا يفلحون. الواعظ معلم ومؤدب والسامعون كالصبيان – والصبي لا يتعلم الا بالخشونة ولزوم الحزم والعبوس؛ واحاد وافراد منهم يتعلمون بغير ذلك موهبة من الله عز وجل».ولم ينس الشيخ نفسه؛ فقد عبر عن الحافز الداخلي الذي كان يأمره بالقيام بواجبه الروحي هذا بقوله:

«أللهم، أني اعتذر أليك عن الكلام في هذه الأسرار، وأنت تعلم أني مغلوب... ولكني – إذا صعدت هذا الكرسي – اغيب عنكم؛ ولا يبقى بحذاء قلبي من أعتذر أليه وأتحفظ منه. من الكلام عليكم هربت منكم وفيكم وقعت! عزمت على ان أبيت كل ليلة في موضع، واسير من بلد الى بلد، ومن قرية الى قرية... فوقعت بوسط ما هربت منه».

فكأنه كان مدفوعاً بقوة لا قبل لها بمقاومتها، ومن هنا كان كلامه – عند نفسه على الأقل – ألهامياً مثالياً من جنس القوة اليي تحفزه وتدفعه.

كامل مصطفى الشيبي

تمهيد لا بد منه

إن هذا البحث الذي أقدمه هنا تكريماً ووفاء لأستاذنا الكبير المرحوم الدكتور كامل مصطفى الشيبي (ت 3/ 9/ 2006م)، هو جزء من وفاء التلميذ للأستاذ الذي تعلم منه الكثير ولم يبخل عليه يوماً لا بنصح أو مشورة، حتى وهو أستاذ مثله في الوسط الأكاديمي، ومن علمني حرفاً صيرني حراً، ولنجعل من ذكراه سنة للأجيال اللاحقة بنا كيف تتعلم رد الوفاء لأساتذتها ومعلميها وتحفظ لهم حقوقهم في زمن قل فيه الوفاء للآباء فكيف بالمعلمين والأساتذة والعلماء؟.

كما أن هذا البحث ليس إلا بذرة من بذوره زرعه هو وغيره من شيوخنا الكبار في الجامعة ممن أعطونا خلاصة علمهم وفكرهم ومناهجهم ووضحوا لنا الغامض من المشكلات ويسروا لنا سبل الإمساك بأصول الحقيقة أو الكشف عنها، فجزا الله الجميع عنا خير الجزاء، ورحمة الله على الأموات منهم وأمد الله بالصحة ودوام العافية الأحياء منهم، اللهم آمين.

الشيبي قرين التصوف

قراءة في كتاب
صفحات مكثفة من تاريخ التصوف الإسلامي

د. حسن مجيد العبيدي
قسم الفلسفة/ كلية الآداب/ الجامعة المستنصرية

تعرفت إلى الدكتور الشيبي منذ دخلت برغبتي في قسم الفلسفة، كلية الآداب، جامعة بغداد عام ١٩٧٨م، لأول مرة طالباً لهذا التخصص، فوجدت فيه الإنسان العالم المفكر الناصح الدؤوب الذي لا يكل من طلب العلم ولا يخجل من السؤال عن الحقيقة، أوليس الفلسفة تساؤل عن الحقيقة والكشف عنها ؟.

ثم تعمقت هذه الصلة على كرسي الدراسة في المرحلة الثالثة في القسم عندما أطل علينا بهيئته المبهرة ليدرسّنا مادة فلسفة وحدة الوجود في الفصل الأول منها، ثم ليتلوه في الفصل تدريس مادة فلسفة الرازي (أبو بكر) وإخوان الصفا، إذ لم يكن تدريسه لنا بالشكل المعتاد للتدريس في الدرس الأكاديمي من حيث متابعة المصادر والمراجع والعودة إلى النصوص كما كان يفعل غيره ممن يدرسونا الفلسفة ثم الوقوف عندها دون تحليل ونقد، بل بدأ درسه معنا في المنهج الواجب إتباعه للكشف عن الحقيقة في أي موضوع من موضوعات التفلسف، وإن كان منهجه لربما لم يتفق معه فيه آخرون، لأنه يمثل شخصه الفلسفي واجتهاده في النظر إلى الأشياء والكشف عنها، هذا المنهج كان يطلق عليه (المنهج اللغوي التاريخي)، وطبيعة هذا المنهج يقوم على متابعة اللفظ أو المفهوم الفلسفي أو الصوفي أو الكلامي من خلال جذره اللغوي وكيف نشأ ونما في الحضارة الإنسانية وكيف وصل إلينا بهذه الصيغة التي استقر عليها حتى سلمنا بذلك تداولاً له واتفقنا على دلالته فيما بيننا، وقد طبق المرحوم الشيبي هذا المنهج على مصطلح (وحدة الوجود Pantheism)، الذي اقترن بالفيلسوف الصوفي الكبير الشيخ محي الدين بن عربي (ت.٦٣٨هـ/ ١٢٤٠م)، فكان المرحوم لا يقبل بهذا القول دون تمحيص ونقد، فتابع اللفظ عبر دلالته اللغوية والاصطلاحية وكيف نشأ في الحضارات الإنسانية الكبرى حتى وصل إلى ما وصل إليه عند ابن عربي ثم كيف تطور بعده إلى يومنا هذا، فقام بسياحة فكرية معمقة له منذ البابليين والسومريين والمصريين القدامى مروراً بالهنود والفرس فاليونان ثم عند الديانات السماوية الكبرى، ليقول في آخر الفصل أن هذا المفهوم يجب أن يدرس هكذا مع نصوصه وبالإمكان تطبيق هذا المنهج على أي مفهوم فلسفي أم فكري.

عرفنا فيما بعد أن هذا المنهج قد وجه به تلميذته النابهة وقرينة أستاذها في التصوف الدكتورة نظلة أحمد الجبوري، فكانت الحصيلة رسالتها عن فلسفة وحدة الوجود، أصولها وفترتها الإسلامية نالت بها درجة الماجستير في قسم الفلسفة جامعة بغداد عام ١٩٨٢م، طبعت كتاباً فيما بعد صدر في البحرين بطبعته الأولى سنة ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م، بعد ذلك غادرنا الدكتور الشيبي متقاعداً في نفس العام وإن كان سنه الوظيفي لا يؤهله بعد للتقاعد وهو ما زال في قمة عطاءه الفكري والفلسفي، ولم يكن خروجه من القسم بطلب منه كما أخبرني فيما بعد، (بل لظروف خاصة فرضت عليه وأوجبت مغادرته القسم)، فخسرنا نحن طلبته فضلاً عن زملائه الأساتذة الأجلاء بخروجه من القسم أستاذاً بارعاً ومعلماً قديراً ومتصوفاً كبيراً. لكن بقيت صلتي به حتى يوم وفاته، رحم الله الشيبي وأسكنه فسيح جنانه أو ليس (مداد العلماء كدماء الشهداء).

الشيبي قرين التصوف

والآن نأتي إلى صميم بحثنا، لنقول: هناك من الدارسين من يقترن أسمهم بموضوعات معينة تبقى لصيقة بهم طوال حياتهم وبعد مماتهم وتكون علامة لهم بامتياز، ومنهم أستاذنا الشيبي الذي اقترن به درس التصوف في العراق المعاصر حتى أنه لا يذكر هذا التخصص إلا ويتبادر إلى الذهن شخص الشيبي، ذلك لأن صلته بهذا التخصص لم تكن عابرة أو لكسب مكانة في الجامعة يبغي من ورائها التدريس الحرفي فقط، بل هو الشخصية المميزة التي درست بعمق ودراية نادرتين التصوف الإسلامي وشخصياته وحققت بعض نصوصه وشرحت بعض دواوين كبار الصوفية في الإسلام، ولاسيما الحلاج وأبو بكر الشبلي وشهاب الدين السهروردي وعبد القادر الكيلاني.

بعد أن سبق ذلك كله بإطروحتيه عن التصوف والتشيع والفكر الشيعي والنزعات الصوفية ، والتي أحدثت في حينها ضجة فكرية في العراق المعاصر تركت ردود أفعال عنيفة تجاه هذين الكتابين. ولهذا مجال آخر للحديث. وختم حياته بآخر بحثين له في التصوف نشرهما في مجلة مقابسات البغدادية، الأول ظهر في العدد الأول من المجلة وكان بعنوان (الغلو وأشكاله في المجتمع الإنساني) أما الثاني، فقد نشره في العدد الثاني من المجلة، وكان بعنوان (الحلاج عند العرب وغيرهم)، ونحن بانتظار أن يصدر له في هذه المجلة وفي عددها الرابع بحثاً عن الشيخ عبد القادر الكيلاني. ولمن أراد المزيد عن الانجازات الفكرية والمساهمات العلمية للدكتور الشيبي فليراجع المقابلة الشخصية التي أجرتها معه مجلة الدليل البغدادية بعددها الثالث في تموز ٢٠٠٤ (ص ص٥٢-٥٩).

لكن الذي نريد أن نسهم به في هذا البحث عن المرحوم الدكتور الشيبي، هي قراءتنا لآخر كتاب منهجي صدر له في مجال التصوف والذي وسمه بعنوان (صفحات مكثفة من تاريخ التصوف الإسلامي، صدر بطبعته الأولى في بيروت عام ١٩٩٧م) ،والذي يبدوا أن هذا الكتاب قد صدر وعمر الدكتور الشيبي قد بلغ السبعين.

والكتاب أنجز من قبله بشكل مغاير عن بقية كتبه السابقة عليه سواءً في المنهج أم في الموضوعات التي تناولها بالدرس والتحليل فيه. إذ وضع فيه خلاصة علمه ومعرفته بالتصوف ومنهجه الذي

كامل مصطفى الشيبي

اختطه لنفسه وهو يؤسس لمدرسة فلسفية عراقية معاصرة في الدراسات الصوفية المقارنة، إذ يقول في مقدمة هذا الكتاب (أنه كتاب غريب بين كتبي ، إذ هو الكتاب المدرسي الأول الذي يكرر ما سبق أن قيل ويبسطه ويتحرى أن يكون قريباً من الأذهان بغير مفاجأة أو إزعاج)، ولكن سرعان ما يقف الدكتور الشيبي عند هذه النقطة التي أشار إليها ليقول: (إن ما أتوق إلى تحقيقه منه أن يغني عن المراجعة والتحقق مما فيه مع علمي بأن شيئاً كهذا بعيد المنال في حالِ كتاب مثل هذا) .

أما المنهج الذي يطبقه الدكتور الشيبي في هذا الكتاب من الناحية الشكلية والذي يعتقده صواباً بعد طول بحث وتحقيق وتأليف، هو أن يُخلي الكتاب من الهوامش والإشارات والمراجع، ويكتفي بالنزر اليسير الذي ذكره في متن الكتاب، والسبب يعود بنظره إلى (إراحة القارئ العام فضلاً عن المتخصص بين أسفل الصفحة وأعلاها، مع بقاء عامل الثقة وحسن النية الذي أود أن يتحقق بيننا). هذا من جهة ومن أخرى أن هذا الكتاب بنظره يمثل عمل تدريسي جامعي طال عليه الزمن، أي أن الدكتور الشيبي في هذا الكتاب أراد أن يُخرج للقارئ المتخصص فضلاً عن المثقف كتاباً في التصوف فيه من البساطة ما يجعله مقبولاً ومرغوباً به ومفهوماً لديه، وكأنه كان يعاني من هذه المعارضة الظالمة للتصوف في الوسط الفكري عند قرائه ومعارضيه ومنتقديه، إذ أنه كان يأمل من هذا الكتاب أن تقبله النفوس وتنعكس منه الفائدة. لاسيما أن هذا الكتاب قد صدر بعد أن تغيرت المواقف الفكرية والسياسية في العالم الإسلامي بعد انهيار المنظومة الشيوعية في أوروبا الشرقية، وكأن المرحوم يتحسس ذلك في كتابه هذا وفي آخر نص منه إذ يقول: (أن غياب التنافس الذي أحدثته سقوط الشيوعية ودولها في أوروبا الشرقية وظهور [منطقة الفراغ] التي ملئت بالنشاط الإسلامي المنظم الذي يقف عند حد تبادل الآراء،....، بل استمر هذا النشاط في حدته وتطرفه حتى ألب الحكومات العربية والإسلامية عليه مما جعل على هذا النشاط هدفاً رئيسياً من أهداف الحكومات ، فأُفسح المجال للتصوف ليخفف من هذه الحدة ويسبغ شيئاً من المرونة والتوّاد والتفاهم بين الجماعات المتصارعة والمتنافسة على قيادة المجتمع والمستقبل القريب سيبين الدور الذي يدخره له)، ولكن هل نجح التصوف فعلاً كما كان يريد له الشيبي في تخفيف حدة هذا التطرف ؟. والجواب عندنا فيه تأمل ونظر ليس هذا مجال نقاشه وتوضيحه.

وكما أسلفنا فإن هذا الكتاب قد خرج عن السياق المعهود في التأليف المنظم للكتب المنهجية، فانعكس هذا الأمر على مضمونه، إذ خلى الكتاب من الفصول والأبواب والمباحث التي عادة ما تصنف بها الكتب من هذا القبيل، فجاء بنظرنا على محاور خمسة رئيسية(لم يشر الشيبي إلى أنها محاور) ضمت بين ثناياها عدة موضوعات مختصة في الزهد والتصوف وشخصيات هذا اللون من المعرفة والسلوك ، فهو كتاب ليس مفهومي فقط بل تأريخي في مضمونه.

المحور الأول من الكتاب اختص بدراسة كلمة صوفي Sufism أو Mysticism، إذ يرى الدكتور الشيبي أن هذه الكلمة قد تعددت الآراء حولها كما رُشحت لهذه الكلمة أصول كثيرة منها ما يوافق صورتها من الناحية الاصطلاحية ومنها ما يخالفها، قائلاً: أن كلمة (صوفي) لم تظهر في الاصطلاح إلا بعد سنة (١٥٠هـ/٧٦٧م) وهي السنة التي توفي فيها أول زاهد لقب بالصوفي في المجتمع الإسلامي (أبو هاشم عثمان بن شريك الكوفي الصوفي)، وفي هذا السياقِ فإن الألفاظ التي يمكن أن تُعد أصلاً لهذه الكلمة هي (الصفاء، الصُّفَّة، الصفوة، الصوفانة، سوفيا، صوفة القفا، الصوفة المرمية، بنو صوفة، الصوف)، فيأخذ الدكتور الشيبي بمناقشتها لفظة لفظة لمتابعة أي منها يمكن أن تكونٍ هي الدالة على كلمة الصوفيٍ ، فمثلاً لفظة الصفاء لا يقبل بها أصلاً للتصوف لعدم قيام دليل تاريخي يعضدها، فضلاً عن أنها لا تصلح لهذا الأصل من الناحية الصرفية أيضاً، إذ أن النسبة إليها (صفائي). في حين كلمة (الصُّفَّة) هي الأخرى لا يقبل بها أصلاً لأنها تصطدم بالناحية الصرفية لها (صُفّي)، ولهذا لا يجد مسوغاً لتحويل هذه الكلمة إلى الصوفية بأية صورة من الصور .

أما كلمة (الصفوة) فهي الأخرى لا تستقيم عنده لأن دعوى القائلين بهذا الأصل يحتاج إلى دليل نفتقر إليه هنا، بالإضافة إلى أن النسبة إلى هذه الكلمة تكون (صفوي). أما لفظة (الصوفانة) فتعني البقول الذي ينبت من تلقاء نفسه ويهمله الناس لعدم الحاجة إليه، وبالتالي فإن النسبة إليها هي الأخرى غير واردة لأنه بنظر الدكتور الشيبي لا يستقيم هذا الفرض مع الحقائق العلمية لأنه يتصل بوجه شبه بينٍ هذا النبات والصوفية لا أكثر، فضلاً عن أن هذه النسبة إلى صوفانة هو صوفاني، وما أبعد هذه الكلمة عن مرادنا.

وتبقى لفظة (سوفيا) وهي المقطع الثاني من الكلمة اليونانية فلسفة (= فيلوسفيا)، وهذه اللفظة أفترضها البيروني (ت٤٤١هـ/١٠٤٩م) في أصل كلمة صوفي، ويرى الدكتور الشيبي أن هذا الفرض على ما فيه من تأخرٍ واضح عن بداية ظهور الكلمة، فضلاً عن أن اللفظ ينسب إليه على صورة (سوفي) بالسين لا بالصاد، وإن كانت أدلة الداعمين لهذا الرأي حسب قول الشيبي إنما تقوم على بعض آراء المتصوفة في القرن الخامس الهجري الذين مزجوا الفلسفة بالتصوف فحاولوا أن يجدوا أصلاً لهذه الكلمة من الفلسفة ، وهذا مما لا يقبل به الدكتور الشيبي ، لان الكلمة تعبر عن ملاحظة مرحلية من مراحل الثقافة الصوفية.

ليقف فيما بعد عند لفظة (صوفة القفا) ليعدها أول كلمة تصلح لأن تكون مشتقة منها كلمة صوفي من الناحية الصرفية ، غير أن دلالتها المحدودة على التصوف باِعتبارها تعني إهمال حلاقة مؤخر الشَعر لا تصلح أن تستغرق الصوف كله إلا ما تعارف عليه أكثر الصوفية الذين لم يتبعوا هذا التقليد.

إذن، أولى الألفاظ بنظره تصلح لهذا المعنى بتمامه عبارة (بنو صوفة) التي تعبر عن أعضاء قبيلة يمانية أُطلق عليها هذا الاصطلاح قبل الإسلام، وقد لقب أوُّلهم (الغوث بن مر) لمّا نذرته أمه لبيت الله الحرام وعلقت على رأسه في صغره صوفة وسماه الناس (ربيط البيت). وقد استقر هذا المعنى في أذهان العرب قبل الإسلام حتى لقد ربطوا بعض مناسك الحج بحضور أفراد هذه العائلة التي صار لها بامتيازها الروحي فلم يكن الحجاج يفيضون من عرفات أو يرمون الحِجارة إلا بحضور رجل من هذه الأُسرة الروحية.

ليخلص بعدها إلى كون كلمة (صوفي) مشتقة من لفظة (صوفة) وإن كان هذا الاشتقاق لا من حيث دلالته التاريخية بقدرٍ بعده الرمزي.

فضلاً عن ذلك يرى الدكتور الشيبي أن نسبة الصوفية إلى الصوف، يلاحظ كونه رمزاً لإهدار القيم المادية التي تعارف عليها الناس بعد إهمال القيم الإسلامية من جانب الحكومات التي صار همها الإبقاء على سلطتها مهما كان الثمن، وبذلك تلتقي دلالة الصوف مع دلالة صوفة من حيث رمزها إلى الحيوان الهالك وفناء الوجود الإنساني، وذلك بإهمال الزاهد للجوانب المادية من الحياة بوصفها مؤدية إلى التميز بكافة أشكاله، وهي تفرق لا تجمع وتؤدي إلى التناقض معٍ المثل العليا التي يتبناها الأديان جميعاً ولا سيما الدين الإسلامي.

أما المحور الثاني من الكتاب والخاص بتحديد وتعريف (التصوف)، فيرى الدكتور الشيبي أن وضع حد أم تعريف لهذا الاصطلاح بالمعنى المنطقي للتعريف التام من الصعوبة بمكان، مثله مثل لفظة فلسفة، لتضارب الآراء في شأنه تضارباً شديداً لمّا يستقر حتى الآن، وهذه الصعوبة مردها بنظره لأسباب.

منها: ارتباط التصوف بالفلسفة منذ القديم ، إذ عرفه الشيخ معروف الكرخي (ت٢٠٠هـ/٨١٥م) هو: الأخذ بالحقائق واليأس مما في أيدي الخلائق. وهو تعريف شبيه بعبارة الكندي في تعريف الفلسفة أنها: علم الأشياء بحقائقها بحسب طاقة الإنسان.

ومنها: أن ما زاد في صعوبة التعريف هو أن من مارسَّ هذا المشرب إنما فعل ذلك وفي عرفه أنه مجموعة من الحالات النفسية وربما النوبات العصبية ومواقف يفقد فيها الإنسان توازنه النفسي وربما ما غاب عن حسه.

ومنها: أن ما يعقد هذه المسألة في وضع حد للتصوف هو أن كيان التصوف العملي والنظري قد أصابه تطور سريع منذ ظهوره في بداية القرن الثالث الهجري إلى أن وصل إلى أوجِه في القرن السابع الهجري، بحيث بدَأ في كل قرن وكأنه موضوع جديد له تمام الاستقلال عنٍ صورته في القرن الذي سبقه، فمثلاً تصوف القرن السادس الهجري يبدو في صورة فلسفية بحتة تستمد عناصرها من الأفلاطونية المحدثة والغنوصية كما في حكمة الإشراق للسهروردي، وفي القرن الخامس الهجري كان مزاج التصوف من الزهد الشديد وعلم الكلام والفلسفة الذي أخذت تتسرب إليه إبانه. وإذا ما تقدمنا في الزمان إلى القرون المتأخرة من العصر الحاضر نجد أن التصوف قد فقد أصالته وصار

كامل مصطفى الشيبي

في المشرق على الأقل مجموعة من الأفكار الساذجة مقرونة بمظاهر مادية يعدُّها الصوفية المحدثون كرامات وخوارق.

وبعد هذه المقدمة التي عرض فيها الدكتور الشيبي للإشكاليات في وضع تعريف للتصوف يقول: أن تعريفات التصوف قد تجاوزت (الألف عداً) بنص قول الشيخ عمر السهروردي (ت٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م) في كتابه عوارف المعارف، وموضوع له ألف تعريف من الصعوبة بمكان تناوله وبحثه. ولذا يقترح هو وضع تصنيف لهذه التعريفات بحسب الموضوعات وتأجيل البحث التاريخي فيها إلى ما بعد تبلور النتائج المتصلة بهذه التجميعات المصنفة، وهي بحسبه ثلاث مجموعات، بسيطة ومركبة ذات جوانب متعددة وجامعة تتميز بالنضوج والإحاطة والعموم.

فمن أمثلة التعريفات البسيطة تعريف أبي الحسين النوري (ت٢٩٥هـ/ ٩٠٨م) التصوف هو السكون عند العدم والإيثار عند الوجود. ويعلق الدكتور الشيبي على نماذج أخرى يوردها من هذا التصنيف، من أن التعريفات تعكس في الحقيقة روح الفتوة التي هي المعنى الذي ينطبق عليه فكرتا المروءة والسخاء.

أما التعريفات المركبة، فيورد الدكتور الشيبي منها تعريف الصوفي أبي على الروَّذباري: أن الصوفي من لبس الصوف على الصفا وأطعم نفسه طعم الجفا ونبذ الدنيا وراء القفا وسلك سبيل المصطفى. وهذا الصنف من التعريفات إنما يمثل بنظره جوهره وملاك أمره، مع دعم بالجوانب التنظيمية والتقاليد الروحية والمظاهر النفسية فقرنوه بفكرة فناء الإنسانية.

من كل ما تقدم عن تعريف التصوف كما عرض له، يخلص الدكتور الشيبي إلى وضع تعريف إجرائي له هو: الظاهرة الثابتة للشوق الكلي الذي يُبديه الروح الإنساني في سبيل الاتصال الشخصي بالله.

أما في المحور الثالث من الكتاب والمخصص لدراسة نشأة التصوف، فنجد أن الدكتور الشيبي يرى أن التصوف بمعناه العام نزعة إنسانية لا يحدها مكان ولا زمان وهو في حقيقة جوهر التوحيد لانبعاثه من الإيمان بالعالم الروحي الذي هو أساس الدين ولتأسسه على التوجه إلى هذا العالم.

وتساوقاً مع منهجه اللغوي التاريخي الذي عرض فيه أصل التصوف وتعريفاته، يرى الدكتور الشيبي أن التصوف له أساس في الحضارات الإنسانية، فمثلاً أن من بين مجوس الفرس صوفية أطلقوا على أنفسهم ما ترجمته (مُشرق القلب)، أو الناظر إلى الواحد، وتمثل الصوفية عند المسيحيين بالرهبان وعند البوذيين بهذا الاسم أيضاً وكذلك عند الهنود، وأطلق عليهم العرب لفظ النُساك والزهاد قبل تبلور هذا الاسم بعد ظهور الإسلام.

لينطلق من هذا التقسيم إلى الوقوف ملياً أمام لفظ الزهد ليدرس فيه الزهد قبل الإسلام بعد أن عرَّف معناه اللغوي وهو عدم الاهتمام بالشيء سواء حصل أم لم يحصل، إذ ورد هذا اللفظ في القرآن الكريم في مواضع من سورة يوسف (وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ [يوسف : ٢٠])، كما أن الزهد له أصول ظهرت في الجاهلية وكان مجتمع مكة والمدينة من حواضر الحجاز وكذا في اليمن وغيره زُهد وزهاد.

أما في الإسلام وبعد مجيئه مصلحاً للحياة الدينية والاجتماعية مبشراً بالعودة إلى الأصول الأولى للديانتين اليهودية والنصرانية وذلك بالعودة إلى دين إبراهيم، دين الحنيفية عند العرب، ومعنى المسلم هنا بمعنى الخاضع لله المسلم له المتبع أوامره ونواهيه، نجد أن السابقين الأولين من المسلمين فيهم مجموعة الزهاد قد فهموا من هذا الدين كونه مجموعة من المثل العليا تتجه نحو القيم الروحية لا المادية، وسلموا أن لكي يحظى الإنسان بالسعادة المادية في الآخرة ينبغي أن يتخفف منها في الدنيا، ومن أمثال هؤلاء نجد الأمام علي بن أبي طالب والخليفة عمر بن الخطاب وأبي ذر الغفاري وحذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر (رضوان الله عليهم جميعاً)، إذ هم مجموعة من الزهاد صاروا نماذج للصوفية فيما بعد وأسوة وقدوة.

> **خصائص الزهد كما يتصورها الدكتور الشيبي، وتبعاً للأمصار الإسلامية (الكوفة، البصرة، خراسان، الشام، مصر) فهي مثلاً في الكوفة تمتاز بخصائص لم نجدها عند زهاد المسلمين في الأمصار الأخرى**

أما خصائص الزهد كما يتصورها الدكتور الشيبي، وتبعاً للأمصار الإسلامية (الكوفة، البصرة، خراسان، الشام، مصر) فهي مثلاً في الكوفة تمتاز بخصائص لم نجدها عند زهاد المسلمين في الأمصار الأخرى، ومن ذلك أن بعض زهاد الكوفة اعتزلوا الناس في بيوتهم لا يخالطون أحداً، كما بالغ هؤلاء في العزلة حتى اندفع فريق منهم إلى التعبد في المقابر هربا من عالم الأحياء الذي لم يؤدِّ إلا إلى زيادة في القلق النفسي والخوف من عذاب الآخرة، فضلاً عن أن الزهد في الكوفة برزت فيه ظاهرة تعذيب النفس، واستحباب الزهاد هناك طول العذاب أثناء النزع. ليخلُص الدكتور الشيبي من ذلك إلى أن هذه السمات للزهد في الكوفة إنما تأثرت بالأحداث التي جرت في هذا الجزء من العالم الإسلامي، فانعكس منها بأشكال جديدة لم يألفها المسلمون الأولون، وتمثل في لبس الصوف واستحباب العذاب عند الموت والانقطاع في المقابر والرعب الشديد من عذاب الآخرة.

يتحدث الدكتور الشيبي بعد ذلك عن خصائص الزهد في الأمصار الإسلامية الأخرى، فمثلا من خصائص الزهد في البصرة، أنها تقبل التأثر وتصدر عنه ولا قِبَلَ لها بمقاومته لكثرة الأعاجم من سكانها قد طبعها بطابع مزجي يتبين فيه الفرق بينه وبين الأمصار الأخرى في وضوح وجلاء.

في حين يتسم الزهد في الشام في قوالب معينة صاغتها الظروف التي مر بها هذا المركز الإسلامي كونه مركزاً حضارياً تألَّف النظام وتَطَبَّقَ القوانين الرومانية ويعش سكانه كعيش الرومانيين.

ولكن سمات زهاد خراسان هي الأخرى إنما نجد فيها زهد فارسي في ثياب إسلامية، وكان طابعه يتمثل في الإنتقال المفاجئ من الحياة المادية إلى الحياة الروحية بفعل هزة نفسية في فترة معينة، ولكن الزهد في مصر يتسم بسمات خاصة كما يقول الدكتور الشيبي، أنه زهد اقترنت به الرواسب القديمة لأن بيئة مصر كانت أقرب البيئات التي تمثل روح الاتجاه إلى الآخر والصدور عنها في الحياة اليومية وذلك للتشابه التام في هذا المظهر الديني عند الفراعنة ثم النصارى وأخيراً عند انتشار الإسلام بينهم، مما نتج عن ذلك أن الزاهد فيها كان إيجابياً يعمل بما فيه من إيمان بالمثل العليا والتزام في تطبيقها على تحقيق ما آمن به بالعمل الإيجابي الذي يناسب هذا التوافق في المزاج والمسلمات ، وكان من تسرب المُثل الفرعونية إلى الزهد المصري أن اقترن العمل بالأسرار الدينية واستخلاص البواطن التأويلية من الظواهر الشرعية ، وظهرت ملامحه عند الزهاد ذنون المصري وعثمان بن سويد الأخميني.

ويقف الدكتور الشيبي طويلاً أمام المحور الرابع من الكتاب وهو الأخير والذي خصصه لدراسة التصوف ورجالاته ومدارسه التي اهتم منها فقط بمدرستين هما مدرسة بغداد الصوفية والمتمثلة بالشيخ معروف الكرخي والحارث بن أسد المحاسبي والجنيد البغدادي، ومدرسة التصوف الفارسي الغائب عن الحس، والمتمثل بمعنى الفتوة والملامتية مع دراسة لشخصيات التصوف الفارسي من أمثال أبي يزيد البسطامي والحلاج والسهروردي المقتول وابن عربي، ليعرج بعدها على دراسة الطرق الصوفية القديمة والمتأخرة الشاذة، فضلاً عن دراسة التصوف في الأدب الحديث والمتمثل بالنتاج الشعري للزهاوي عن مسرحيته بعنوان ثورة في الجحيم جاعلاً الحلاج من أبطالها وقصيدة الشاعر اللبناني أدونيس (علي محمد سعيد) والشاعر عبد الوهاب البياتي عن الحلاج وغيره.

ويعتقد الدكتور الشيبي في هذا المحور أن التصوف حركة منظمة بدأت مع انتظام الزهد وتجميع مثله الجديدة والقديمة في مذهب واحد منهجي له صفة التكامل الظاهر والثقافة والتنظيم الاجتماعي والمنهج المدرسي، وبهذا المعنى يضع حداً تاريخياً لظهور التصوف كمصطلح مستقر في داخل دائرة الثقافة الإسلامية بشكله العملي واستقلاله عن الزهد وذلك في أواخر القرن الثاني الهجري ، إذ جاء أول ذكر للصوفية عند الجاحظ في آثاره، مع استقرار للتصوف بهذا البعد نهائياً على يد الشيخ معروف الكرخي، وأن بداية ظهور التصوف كان معاصراً لبواكير الإنتاج الفلسفي الإسلامي، مع إصرار من قبل الدكتور الشيبي بوجود شبه بين الفلسفة والتصوف في عبارات الفلاسفة والصوفية بحيث يمكن اعتبار التصوف صورة جديدة من الفلسفة طوَّرها أصحابها استقلالاً بها عن صور الإنتاج الفلسفي، كما فعل ذلك المتكلمون قبلهم بقليل، وإثباتاً لدليله هذا يورد في كتابه هذا نماذج من تعريفات الفلسفة عند الكندي والفارابي وابن سينا ليخلص منها إلى وجود تقارب بينها وبين تعريفات التصوف كما وردت عند الصوفية.

كما يصرح الدكتور الشيبي أنه مع بداية القرن الثالث الهجري قد انجلى الموقف عن مدرستين صوفيتين،

إحداهما تصدر عن روح نظرية تعتمد على آراء جديدة في علم الكلام والفلسفة وهي مدرسة بغداد الصوفية، وأُخرى تصدر عن روح عملية تستمد طاقتها من مُثُل الفتوة والملامتية من ناحية ومن الغيبة عن الحس وإفناء الذات الإنسانية إلى حد إهمال الواجب الشرعي المعتاد ظاهرياً من ناحية ثانية، وتلك هي مدرسة نيسابور الشطحية أو الفانية عن الحس أو ما يصطلح عليه بمدرسة (السكر) فهي مدرسة تقابل مدرسة (الصحو) في بغداد.

إذ يعتقد الدكتور الشيبي أن الموجات الفلسفية العقلية التي تعاقبت على بغداد هي الأساس في إصدار روح التصوف فيها هذا الطابع النظري، بينما كانت الحركات الثورية والغليان القومي والتقاليد القديمة في إيران والبعد عن مركز السلطة ورقابتها هي المسئولة عن إفراغ التصوف الإيراني في قالب ذي شكلين متقابلين متناقضين من ناحية المظهر ومتناسقين من حيث الأساس، هي الملامتية العملية من ناحية، والشطح والغائب عن الحس من ناحية أُخرى. فمثلاً يعد الدكتور الشيبي أن الشيخ معروف الكرخي أول زاهد استق اسم الصوفي لا عن لقب ونسب وإنما عن فكر ومنهج ورأي، أما الحارث المحاسبي (ت٢٤٣هـ/٨٥٧م) فيعتبره الدكتور الشيبي صوفياً عن بينة واختيار، في حين يكون الجنيد البغدادي (ت٢٩٨هـ/٩١١م)بنظره قمة المدرسة البغدادية الواعية في التصوف، هذا من جهة ومن أخرى التصوف الفارسي الغائب عن الحس يقوِّمه الدكتور الشيبي بآرائه النقدية المميزة، فيقول أن أبا يزيد البسطامي (ت٢٦١هـ/٨٥٧م) إنما أفكاره بقايا من رواسب المجوسية، ذلك أن كلامه نجد مضمنات للفظة (الزنّار)الذي كان حزاماً من الصوف يشده المجوس على أوساطهم، إذ صار الزنّار في كلام البسطامي رمزاً للجانب الفاني من الإنسان الذي يحيا حياته المثالية الروحية بعيداً عن علاقة مادية، في حين يشير إلى تصوف الحلاج (ت٣٠٩هـ/٩٢٢م) أنه خير معبر عن مدرسة السكر الصوفية، وهو في أقواله وأرائه قريب الشبه بأبي يزيد البسطامي ولا سيما فيما يتصل بشطحاته التي تعبر عن (السَفَر الثالث) المتمثل في التعبير عن نفسه في حال من الاندماج في العالَم الروحي لا يتناسب مع متعارفات المجتمع، في حين يكون السهروردي المقتول (ت٥٨٦هـ/١١٩٠) بنظره خير من يمثل الثقافة الفلسفية الموسومة بفلسفة الإشراق، والتي تعتبر تطوراً لنظرية الحلاج في الوجود على صورة تدخل في تكوينها العناصر الفلسفية في وضوح وجلاء، فضلاً عن أن هذه الفلسفة السهروردية دخل في تكوينها أيضاً عنصر يتصل بالأفكار الفارسية القديمة التي تعتبر فكرة (النور) أساس التدين الفارسي الذي يعد الإشراق وتنقل النور الإلهي في الملوك من لوازمها.

أما ابن عربي فيعد أهم فكرة قدمها إلى المعرفة الإنسانية قي فكرة أو فلسفة وحدة الوجود التي استقاها من مصادر لا تحصى من الأبحاث المختلفة التي خاض فيها جَمْعٌ من ذوي الاتجاهات المتنوعة من الإسلاميين وغيرهم من اليونانيين والفرس.

سيرة الشيبي بقلمه

في جامعة كمبردج اثناء دراسته

ولدت في الكاظمية، في ١٤ شوال ١٣٤٥هـ/١٧ نيسان ١٩٢٧ في أسرة تتوارث إدارة المؤسسات الدينية، وكان أولهم هجرة إلى العراق رجلاً اسمه ربيعة جاء من مكة مع جيش السلطان سليمان القانوني فاتح العراق سنة ٩٤١هـ/١٥٣٥م.

ودخلت الكتاتيب والمدارس الرسمية في الكاظمية، ثم درست الآداب العربية في كلية الآداب بجامعة الإسكندرية وتخرجت فيها سنة ١٣٧٠هـ/١٩٥٠م ونلت درجة الماجستير منها سنة ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م. بعد ذلك شددت الرحال إلى جامعة كمبردج، في المملكة المتحدة، حيث نلت درجة الدكتوراه سنة ١٣٨١هـ/١٩٦١م.

وفي الأثناء عملت مدرساً في المدارس الثانوية في العراق ثماني سنوات.

وبعد إتمام الدراسات العليا عملت في كلية الآداب بجامعة بغداد منذ سنة ١٣٨١هـ/١٩٦١م حتى تقاعدي لأسباب صحية، في ١٠ رمضان ١٤٠٣هـ/٢١ حزيران ١٩٨٢م تدرجت خلالها في المراتب العلمية حتى أصبحت أستاذاً في ١٣ رمضان ١٣٩٢هـ/٢١ تشرين الأول ١٩٧٢م.

وفي امتداد هذه السنين انتدبت للتدريس في جامعة الفاتح بطرابلس المغرب ثلاث سنين، تفرغت في جامعة هارفرد علمياً مدة سنة جامعية كنت فيها في عرفهم: زميلاً باحثاً، وقضيت سنة جامعية أخرى في جامعتي العتيدة، جامعة الإسكندرية أستاذاً زائراً شاركت أثناءها في مناقشات رسائل الماجستير والدكتوراه وأشرفت على الامتحانات الشفوية فيها، وكان ذلك شرفاً عظيماً ما زلت أتحسس لذته وأتلمظ حلاوته!

عراقيون
من زمن التوهج

ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون

رئيس مجلس الإدارة رئيس التحرير
فخري كريم

مدير التحرير: علي حسين

التصميم: نصير سليم

الغلاف برؤية: علاء كاظم

التصحيح اللغوي: عبد الرزاق سعود

طبعت بمطابع مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون

كامل مصطفى الشيبي

عاشق المهمشين وحلاج الفقراء

. لم يكن كامل مصطفى الشيبي عابراً في حياة الثقافة العراقية، أستاذ الفلسفة الإسلامية في جامعة بغداد، وأحد اهم الباحثين في شؤون هذه الفلسفة وقضاياها، وما جاورها من شخصيات وآداب وفنون. وهو ولد في بغداد العام ١٩٢٧، ودرس الادب في جامعة الاسكندرية، ثم اكمل دراسته العليا في الفلسفة في الجامعة ذاتها، ثم في جامعة كيمبردج التي حصل فيها على دكتوراه في الفلسفة العام ١٩٦١، لينتظم، منذ ذلك التاريخ، استاذاً في قسم الفلسفة في جامعة بغداد، ثم في جامعات عربية وغربية.

وشأنه شأن الكثير من أبناء جيله من الباحثين والاساتذة الجامعيين، فحياته العلمية توزعت بين اهتمامين أساسيين. فمن جانب، كانت هناك الدراسات الفكرية والفلسفية التي كان حريصاً على ان يبحث ويكتب في ما لم يكتب فيه من قبل، فجاءت اكثر من دراسة له في هذا المجال، وفي الذروة منها كتابه «الصلة بين التصوّف والتشيّع».

ومن جانب آخر كان تحقيق النصوص الذي اتخذ فيه منحى يمكن ان نطلق عليه «جمع المتفرق». فهو لم يأخذ، في عمله هذا، مخطوطاً جاهزاً، كاملاً او قريباً من الاكتمال، فيحققه، وانما تنكب الطريق الاصعب والمتمثل في اختيار موضوعات، او شخصيات، تمثل ما يمكن ان نعده حياة متطرفة او واقعاً من هذا القبيل، ثم البحث عن تراث هذه الشخصية، كما فعل مع اشعار الحلاج، بعدما وجد ان المستشرق لويس ماسينيون، على اهتمامه الكبير به، قد ظلمه بإصداره نصاً لأشعاره وجده الشيبي «مليئاً بالأخطاء اللغوية والنحوية والتفسيرية»، على ما جاء في مقدمة تحقيقه ديوان الحلاج. وهناك جمع النصوص التي «صنع» منها موضوعات متكاملة بعدما أهملها الباحثون والمحققون المعاصرون. فجمع وحقق «ديوان الدوبيت» الذي كان لصدوره اوائل السبعينات صدى واسع في الأوساط الأكاديمية والمعنية بالأدب القديم، وقد حظي بأكثر من جائزة. وعلى النهج ذاته مضى في جمع «ديوان الكان وكان» وتحقيقه و «ديوان القوما» - وكلها فنون شعرية شعبية عرفها أدبنا العراقي في فترات من تاريخه.

إلا ان الشيبي انعطف في الحقبة الأخيرة من حياته نحو جانب مثير وطريف في التراث العربي، هو ما تمثل في الكتابة عن «المهمشين» في هذا التراث، والتعريف بـ «البهاليل» الذين اراد ان يجعل لهم شأنهم في عصره بعدما عاشوا على هامش الحياة والأدب في عصورهم. فكتب عن «البهلول بن عمر الكوفي» داعياً اياه بـ«رائد عقلاء المجانين». وهو كما قال عن نفسه يوماً، من حيث الاهتمام بمثل هذه الموضوعات التي لم يقترب منها سواه من الباحثين، انه يحب «الخوض في الموضوعات المجهولة والمهملة التي تستحق الاهتمام وتفتقدها الثقافة».

ويبدو أن رحلة حياته التي انتهت في بغداد قبل ايام انعكست على اهتماماته الادبية والفلسفية والبحثية، فكان الكثير مما كتب بمثابة استجابة، ذاتية وعقلية، لما عاش وواجه في مسارات حياته. ووجد في ما حقق تمثيلاً لجوانب من معاناته، اذ حقق ديون «الحلاج» في فترة عصيبة من حياته، وكتب عن «المهمشين» و «البهاليل»، واعاد الى دائرة الضوء عدداً من المنسيين في التراث العربي في حقبة طاوله فيها النسيان والتهميش. ولم يكن كتابه الاخير عن الموت، الذي أوصى ان يطبع بعد وفاته، سوى استجابة لنداء اعماقه، ذلك النداء الذي كان يستجيب له دوماً، وفي صور مختلفة.

اما هويته الفكرية والعلمية، فحددها بالكلام على شخصه. فهو – كما قال – ممن «ينفردون بأفكار ومناهج قد تكون غير مرضية لدى الأغلبية التقليدية من الباحثين والسلطات هنا وهناك». إلا ان ذلك لم يكن يعنيه في كثير او قليل فقد ظل طوال حياته العلمية مدافعا عن اراه ومعتقداته العلمية والفكرية ، نصيرا لفقراء هذا البلد مثلما كان شيخه الحلاج نصيرا ومدافعا عن فقراء بغداد